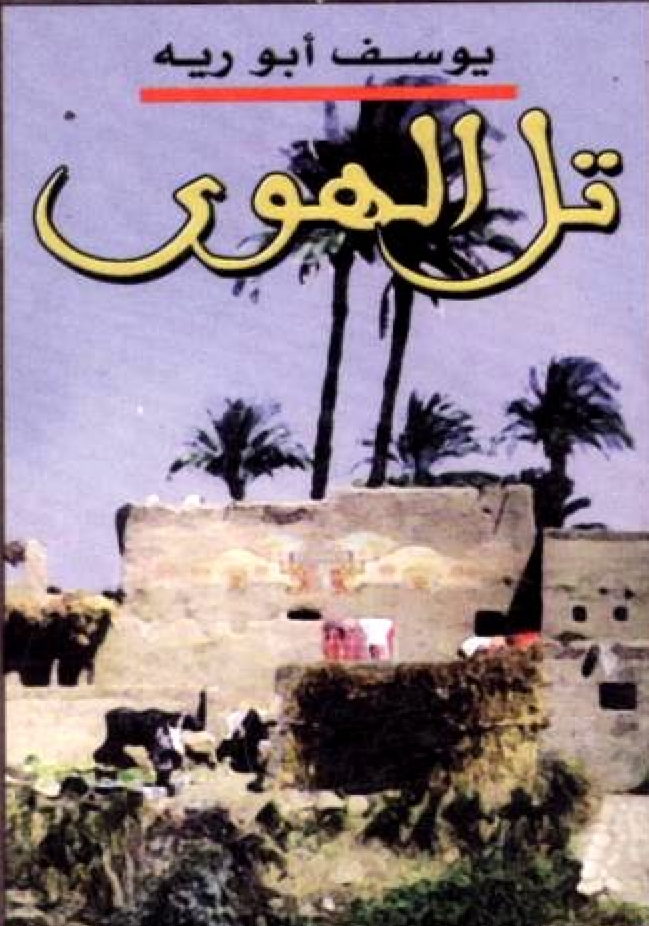
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

يوسف أبو ريه

تل الهوى



رواية

أعمال إبداعية

١٠

تلّ الهوى

يوسف أبو ريّه

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

إشراف : د. سهير المصادفة

تلّ الهوى ـ يوسف أبو ريّه

الغلاف والإشراف الفنى :

للفنان : محمود الهندى

للفنان : محمد كامل

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:

محمود عبدالمجيد

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيدة التى جعلت من الكتاب وطنًا !

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء «**مكتبة الأسرة**» وأذكر أنه كان يومًا مشهودًا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التى كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذى لا يتوقف عن التفكير أبدًا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التى كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المدارس الابتدائية، ورفع مستواها العلمى والتعليمى، وحتى مستوى الأبنية والخدمات.. فكان الأساس فى ذهنها، كما أدركت بعد ذلك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هى أهم ما يميز الأوطان، وأن الطفل الذى يمثل البذرة الأولى فى بناء مستقبل أى وطن هو البداية الحقيقية. كنا نتعجب جميعًا فى صمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحد من قبل فى الطفل، ولا أعنى صحته فقط، أو ما قد يصيبه من أمراض، أو مستوياته الاقتصادية

والاجتماعية.. لماذا لم يفكر أحد فى الطفل الإنسان؟! أى فى عقل الطفل ووجدانه، والانطباعات المختلفة، التى يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصرى فى ذلك الوقت معتادًا أن يمسك بالكتاب المدرسى ويصب عليه كل ما فى طاقته من كره وسخط، ويحفظه حفظًا آليًا بلا فهم، ويُفرّغ هذا الفهم على الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما فى آخر السنة فكانت العادة أن يرمى الكتاب المدرسى من النافذة، كأنه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التى قُدّر لها أن تعنى بمستقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر فى الطفل كإنسان، وكعقل، وكروح،.. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يأتى إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسى، كما لا يأتى أيضًا إلا من خلال كتاب يوضع فى يده ليحبه شكلاً ومضمونًا، ويحتضنه فى سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التى يقرؤها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتاب إلى عالم سحرى من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتها لوطن يبنى نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادى والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة فى الأحياء الفقيرة والمُعدَمة، كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت فى ذهنها فأصبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافى فى القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين.. «**مكتبة الأسرة**».

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فى نفس الوقت، وهى أن نقوم بغرس عادة القراءة فى نفوس ملايين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءًا من حياتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تمامًا، فقد كان بعض من يسخرون من الشعب المصرى، محاولين الحط من قدره يصفونه بأنه شعب **الفول والطعمية**، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بلا تردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبى والفكرى والعلمى والإبداعى الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية فى عالمنا العربى، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصرى لينقل العالم العربى كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب تعيش عصر العلم والتقدم، وتبنى شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافى على مدى العالم..

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضنى والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن فى كل بيت مصرى، تحمل صورة السيدة التى فكرت ونفذت هذه

الذخيرة من الفكر والإبداع التى تثرى عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابًا، ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم العربى كله.. وأصبحت المادة التى تضمها هذه الكتب هى أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل القيمة والحجم وتحقق.. تحية لهذه السيدة العظيمة «**سوزان مبارك**»، واحترامًا وحبًا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة **سوزان مبارك** موجودة على كل كتاب، وفى كل بيت تُذكّر كل مصرى أن الحلم الحقيقى ليس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو «**المعرفة**» وبدون معرفة فى هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شىء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

صوت جماعى

عزبتنا الصغيرة تتبع الكفر (به عمدة تدهورت هيبته فى الآونة الأخيرة ..) الذى يتبع المركز (به مأمور وضباط ، وخفراء ، وسوق كبيرة ..) الذى يتبع العاصمة (بها الحكومة والمذياع..) .

على شرقها خط للقطار نعرف به الزمن ، على غربها قرية بمدافن ، ذات شواهد نظيفة بيضاء ، خلف دورنا مزارع تلتحم بالأفق البعيد ، يتناثر فيها الآباء يحرثون ، يروون ، يغرسون .

ولقريتنا شيخ فى داره صندوق بريد ، وخفير يمر - بالليل - ولا نراه ، كالأفعى الملاك التى تحدث عنها الجدات .

كل شيء حوله ينفث بخارا أبيض ، الأرض ، والزرع ، ومنخار الحمارة التى تسير تحته بطيئة على غير العادة ، ومنخره هو ، وفمه القابض على عدة الأسنان.

وحدَّ البخار الكون ، وجعله ضيقا جدا ، لا يتسع لغير دائرة محدودة ، تسير فى بؤرتها الحمارة ، تتحسس طريقها إلى العزبة ، فى هذا الصباح الشتائى الباكر .

منذ أن ودع شوارع الجزيرة . ودخل أول طريق المصرف لم ير شيئا البتة ، لم يمر عليه إنسان بعد ، لم تقع عيناه على شريط القطار ، ولا ماء المصرف الذى يعرف أنه يمتد عن يمينه ، بعد مساكن عمال الدريسة ، على حدود البلد . كما لم تسمح له الشبورة بالنظر إلى الزرع عن يساره ، غير أنه كان يبدو على فترات متباعدة طبقة رقيقة بيضاء ، تغطى أوراق البرسيم المائل نحو الأرض .

وقرب الانحناءة التى سيدور حولها ليتخذ طريقه العرضى نحو العزبة ، سمع هذا الصوت ، توقفت قدماه عن ضرب جانبى الحمارة ، وخبطها بحنو علي عنقها فتوقفت فجأة ، وراح ينصت ، كان الصوت يشبه مواء القطط الصغيرة حين تهمل فى خرب الليل ، يأتيه من يساره ، وخيل إليه أنه يناديه : ياحاج .. يا حاج ، وشيخوخته لا تسمح له بالنزول إلى زرعة البرسيم الباردة ، فقد كان يلف نفسه بالعباءة السوداء ، وشال الصوف البنى .

انتظر ليتأكد من الصوت مرة ، ومرة ..

إنه صوت طفل صغير ، فهل يعقل هذا ؟ في مثل هذه الأرض ، وفي مثل هذا الطقس ؟

وأن يصيح طفل باسمه ، هل ما يسمعه حقيقيا ، أم أنه الوهم ؟

انتظر طويلا لعل أحد الفلاحين السارحين إلي حقولهم يمر عليه ، الحمارة كانت متململة من الوقوف الطويل ، كانت تنفخ الأرض فلا يتحرك التراب المبلول ، فنزل عليها ، وخشى ،أن يتركها ، فتفر إلى (تل الهوى) وتتركه وحيدا ، جرها من حبلها ، وأراد أن يدخل بها الزرع ، وقبل أن يفعل هذا سمع نعير الجاموسة المقبلة من جهة الجزيرة ، فترقب ظهور صاحبها .

– صباح الخير يا حاج عبد الله .

– يا مرحب .

– تأمرني بحاجة .

– فيه عيل هنا في البرسيم .

– عيل !! يا فتاح يا عليم .

– سامع صوته ؟

– أي والله .

– كان ينادي عليّ .

ودخل إلى البرسيم تاركاً وراءه خطا أخضر وسط البياض ، والحاج عبد الله انشغل بسحب الجاموسة التي مدت لسانها لتلتهم العيدان الريانة .

وسأله الحاج : الجدع ابن من ؟

– أنا والا هو ؟

– أنت .

– أبو جاب الله .

وعاد الشاب رافعا اللفة البيضاء المنداة ، مال الحاج إليها ، ولمح بنظره الكليل قطعة اللحم الحمراء العارية ، والسرة البارزة في البطن الصغير ، كان الرضيع قد أطلق يديه خارج اللفة ، وعيناه المغلقتان على الظلمة لم تر النور بعد .

– لا حول ولا قوة إلا بالله .

– أمه أكيد من العزبة .

– أو من البلد .

– مشوار البلد بعيد .. قل لي ما اسمك ؟

– العربي .

– تشتغل عندي يا عربي ؟

– اشتغلت من قبل يا حاج ، وطردتني .

حاول الحاج تذكر متى التحق بالعمل في أرضه ، وكيف طرده ؟ وما السبب في ذلك ؟ غير أن ذاكرته لم تسعفه ، فقد ترددت عليه في الآونة الأخيرة وجوه كثيرة ، لا يمكثون معه طويلا هذه الأيام ، شهر أو شهرين ، ثم يبحث عن الشخص منهم فلا يجده ، أو يرسل في طلبه ، فيكون الرد : لن أسرح في هذا اليوم . مرة بادعاء المرض ، ومرة لأنهم عثروا على عمل بديل ، يدر عليهم أجرا معقولا ، كالالتحاق بمقاول البناء ، والمحظوظ منهم من وجد له طريقا للسفر ، العراق ، الأردن ، ليبيا ، أو يذهب عمرة للسعودية .

زمان .. كان ينعي الأرض ، ويحزن على مصيرها لما تقع عيناه على فلاح عاري الرأس ، لا يعتمر طاقيته الصوف ، أو حين يجد أحدهم يخب في سراويل ، من هذه الحلل الشعبية التي روجت لها حكومة عبد الناصر ، فما بالك بما يحدث للأرض الآن ، بعد أن غادروها بقلوب ميتة ؟

أين هذا الفلاح الذى كان يربط وسطه بحزام طوال موسم الحصاد ويستمر به حتى ينبت الزرع الأخضر على وسطه .

بل أين هذا الفلاح الذى كان يرتبط بالعمل لدى المالك لثلاثة أجيال من حفدته ينال الكسوة السنوية ، والنعل ، ويحظى براتب معقول ، يمكن أن يسحب منه طيلة العام ، ثم لماذا يحتاج إلى النقود ؟ وهو يأكل الوجبات الثلاث ، كما أن له نصيبا فيما تخرجه الأرض .

كانوا سعداء بمصائرهم ، وبحياتهم المستقرة ، لم يتذمر أحدهم يوما ، لقد وصل الراتب السنوى فى آخر العهد بهم إلى ستين جنيها . «تركونا نحن أصحاب الأرض لكل من هب ودب» .

وصل بى الحال لأن اتلقف العكاوى ، هذا العبيط الذى لا يداوم مع أحد قط ، جاءنى وأنا جالس أمام دارى فى تل الهوى ، رأيته من قبل يحوم فى المكان ، ثم وقف هناك في زاوية الجدار ، وحين لم أعره انتباهى تقدم خطوتين .. يلم حياءه فى هذه الهلاهيل التى يضعها على جسده الممصوص ، ويحك الأرض بنعليه المزعين فتحرك ترابها – أبا الحاج .. تحتاج لرجل يسرح بالبهائم ؟

قلت له : تعال يا عكاوى .. ادخل الدار هناك منديل معلق وراء الباب به بقايا طعام ، تغدى ، وبعدين نتفاهم .

وقبع على المنديل ، فهرسه هرسا .

وقلت له : لم يعد لدى الكثير من المواشى ، جاموستان وبقرة ليس عليك غير إطعامها ، وإحضارها إلي هنا فى الصباح والعودة بها إلى الجزيرة مساءً .

– عينى .

استمر على هذا كثيرا ؟ .. أبداً ، أسبوعان وحياتك . بحثت عنه فى سلقط فى ملقط ، اختفى . وهل العبيط من أمثاله يصلح لهم هناك ؟ يمكن حصل على عقد ، سبحانه يوضع سره .



– ولماذا طردتك يا عربى ؟

واحنى الولد رأسه إلي الأرض ، ولم يستطع الرد على الحاج ، حاول أن يبحث عن سبب ، ولكنه بوغت بالسؤال ، كما لم يكن يأمل فى هذا اللقاء المفاجئ فهو منذ أن خرج من العمل فى أرضه لم يحاول لقاءه أبدا ، وحين يصادفه فى الطريق يراهن على ضعف بصره .

وحسمت الجاموسة الموقف الحرج ، فقد سحبته بقوة نحو الترعة ، أغراها هذا الماء البارد الذى فاض حتى سال علي جانبى الجسر ، حاول منعها من النزول إلي الماء ، فهى لم تنل إفطارها بعد ، والماء على الريق يضّر بالبهيمة ،، خشى أن يسقط الوليد من يده ، فأطلق الحبل للجاموسة ، فدخلت بكامل جسدها فى الماء ، وطفت علي وجهها سابحة بفرح ، مادة شدقيها على السطح ، تحسو شرابها ، غير ملقية أى اعتبار لصاحبها الذى راح يلعن خاش أجدادها .

الحاج وقف بحمارته يرقب المشهد من عل ، حاول أن ينتظر معه ، ربما استطاع إقناع الولد بالعودة للعمل معه ، غير أن العربى تقدم نحوه رافعا اللفة البيضاء .

– لفه فى العباية يا حاج الولد بردان .

– شاور عقلك ورد علىّ .

– توكل على الله يا حاج .

– والولد ؟

– اسأل عن أمه فى العزبة .. لحظة ، فيه كتابة على بطنه .

– كتابة !! إقرأها .

– لا أعرف القراءة .

وعاد العربى إلي جاموسته ،، رفع الحاج الولد بالقرب من عينيه ، حاول

التماس الحروف المكتوبة بالقلم الجاف ، كانت الحمارة تخب فى مشيتها فلا تمكنه من ثبات النظر «هيس» .

حاول مرة أخرى ، كتل الشبورة تراكمت ، غطت المكان ، فصار الخط باهتا ، وبعيدا ، وحين أجهده البحث فى الكلمات الغامضة ، ضرب الحمارة فى جنبها ، فأتخذت طريقها نحو العزبة .

الدخان يتعانق مع الشبورة فوق بيوت تل الهوى ، يلتقيان ، يمتزجان ، يصعدان معا ، ثم يتلاشيان أعلى الحقول المرتعشة ، يعرف أنه يواجه هذه البيوت لكنه لا يراها ، يفاجأ بأحد رجال العزبة أمامه ، في الدائرة المحدودة ، يسحب بهيمته التى تنثر الزبد من أشداقها ، يسمعه وهو يلقى تحية الصباح ، فيرد عليه بعد أن يكون قد تعرف على الصوت ، هو يعرفهم جميعاً ، فعدد دورهم لا يتجاوز العشر جمعتهم أرض الباشا قبل الثورة اسكنهم هذه البحور الطينية دون أن يمتلكوها ، وحين جاء زمانه ، وامتلك هو الحقول التى تمتد خلف العزبة ، ابتاع الدور معها ، ودفع ثمنها للمحكمة ، لأنهم من جانبهم دفعوا نفس الثمن ، كم من الزمن انقضى حتى تمكن منها ؟ وقفوا فى مواجهته فى ساحات القضاء ، وخاض حربين معا ، واحدة هنا على هذه الأرض ، والأخرى هناك بين أروقة المحاكم ، وصدر الحكم لصالحه ، فامتلاكه للأرض الزراعية القريبة يشفع له حيازة الدور الواقعة على رأسها .

واقبلوا عليه أذلاء ليبتاع كل واحد منهم داره على حدة ، وحدد السعر وفقا لموقف الرجل منهم أثناء الصراع . هذا بسعر مرتفع لأنه قلع الزرع ، وأطلق الماء فى الأرض ، وهذا يستحق قطع الرقبة لأنه شارك في تسميم الغنم ، أما هذا فإننى أبيعه بسعر لا يطيقه لأنه تصدر له بتوكيل عن الآخرين ، وهو الرأس المدبر لكل الأحداث ، وهو الذى ساقهم إلي المحكمة ، وكان من الأجدى تسوية الأمر وديا .

قلت له : يا عبد الكريم إنك تسعى فى قضية خاسرة .

شمخ بأنفه ، ولوى رأسه مبتعدا : الأيام بيننا .

قلت له : إذن انظر إلي المحامين ، إنهما يتصارعان هنا أمام القاضى ليثبت كل واحد منهما حجته ، ثم تراهما زميلين ودودين فى مكتب المحاماة .

فتساءل بعنجهية : ماذا تقصد ؟

قلت له : أن تتمثل بهما ، كل واحد منا يحضر كل ما يثبت حقه أمام القاضى ثم نعود إلى العزبة كجارين صديقين .

ولكنه لم يفعل بهذه الحكمة أبدا ..

الجأنى أكثر من مرة لأن اعبىء السيارة النقل الكبيرة بالرجال ويرفعون الشوم والعصى ، ودفعنى لأن أرخص لنفسى سلاحا يحمينى ، فأنا الرجل الغريب أتى إليهم من البلد ، وهم عصبة تستطيع نهب المحصول ، واشعال النار فى دار العزبة .

●

سمع صوت ارتطام الجسد في الماء ، فضغط بساقيه على جانبي الحمارة ، ثم ضربها خفيفا على عنقها لتتجه يسارا .

- أنت يا جدع .

أراحت الحمارة رأسها على سور المصلى ، وتمكن الحاج عبد الله من رؤية الملابس الملقاة على الحلفاء ، وتشمم أنفه رائحة النعاج المتجمعة بالقرب من السور فتأكد لديه أنه هو . «جسده أبد ...» .

ونادى عليه :

- يا سليم .

فخرج إليه عاريا يحوطه البُخار ، كان ينحنى قليلا إلى الأمام ، يدارى بكفه عورته ، وينثر بأصابع الكف الأخرى الماء من أنفه .

- نعم يا حاج .

ومال علي جلبابه ، أدخل رأسه من أسفل ، ومد ذراعيه لتخرجا من الكمين ، ثم مال مرة أخرى ليرفع شال العمامة ليلفه حول رأسه المبلل .

- أنت يا جدع لا تهمد أبدا ، خلصت عليك الزوجتان .

- بلا نيلة يا حاج .

وجعل عصاه الطويلة تحت ابطه ، احكم المعطف الأسود الخشن على بدنه وطقطق بفمه ليحث الغنمات على المسير .

- طب اخطف ركعتين لله .

- هذه المرأة إذا جاءت لا تسمح لها بدخول دارك .

- أى امرأة تقصد يا عرباوى ؟

- فتحية .

- طردتها مرة أخرى ؟؟ أما إنك رجل معزة .

- بلا معزة بلا خروف يا حاج .

- أكلتها لحما وترميها عظما .

- لحم !! منذ عرفتها وهى كالعود الناشف .

- خلصت عليها بأفعالك ، وخلصت عليها عالية بسحرها .

- ما دخل عالية فى الموضوع يا حاج ؟ برقبتها .

- طبعا لأنها عرباوية مثلك .

- المرة مرة بلا عرباوية بلا فلاحة .

- وإذا كانت برقبتها كما تقول لم لم ترم لك الولد يا ناصح ؟

- هذا نصيب يا حاج .. وكله بأمره .

- لأن فتحية غلبانة وليس لها أهل ترميها هكذا ؟ وأخذت منها زيدان ؟

- رميتها هى وابنها وابنتها .

- هذا فعل شياطين عالية .

- قلت لك يا حاج لا دخل لعالية بالموضوع .

- يا رجل .. لم تكف يوما عن السعى إلى المشايخ وأعمال السحر .

- كيف يا حاج وهى التى اختارتها لى ؟

- كيف السكينة سرقاها .

- يا شيخ .

- ولما الفاس وقعت فى الراس ، وجاء الولد شعرت بالغيرة .

الثانية قليلة الأصل يا حاج .

- طبعا لأنها تسعى لرزقها ورزق أولادها !، وأنت يا جربوع لا تعطيها شيئا شاطر تركب كل ليلة .

- قطع الزربية أهون من ركوبها .

- كلام نقوله بعد ذهاب السكرة ، والله يا مجرم أكيد فعلتها ، ثم ركلتها بقدمك .

بصق سليم خارج سور المصلى ، ثم خرج ليدوس البصقة بقدمه ، كأنما تذكر أحداث البارحة ، وراح يهرس فتحية تحت قدميه ، وانقلب وجهه الذي مسحه بكمه ، ضرب النعاج القريبة منه ، وبدأ الاستعداد للذهاب ، وقبل أن يفارق المكان لمح اللفة تحت عباءة الحاج ، ثم سمع صراخ الطفل ، فزايلت وجهه حالة القرف لتبدو ملامح الدهشة .

- ابنك ؟

- داهية تأخذك يا عرباوى ، هذا من فعل الأنجاس من أمثالك .

- يا ساتر !!

- وجدته فى البرسيم على أول الترعة .

- من بلدكم يا حاج .

- المؤكد إنه من عزبتكم ، ولا استغرب أن يكون ولدك .

- العربان لا يرمون أبناءهم فى البرسيم يا حاج .

- يرمونهم على أكوام السباخ ، فكر معى يا بجم ابن من هذا ؟

- ربنا أعلم يا حاج .. سلام عليكم .

- تعرف القراءة ؟

- ما كان يتعز .

- داهية تاخذك .

– صباح الخير يا (أبو زيدان) .

– أهلا يا عربى .

– شربت المكلوبة .. خذ .

وتقدم العربى نحو الحاج ليرفع اللفة بين يديه ، كان الغطاء قد انسحب عن الوجه قليلا ، فوقعت عيناه على ملامح الطفل ، كأنما يراه لأول مرة ، العينان مغمضتان تسيل من جانبيها دموع كبيرة .. يا قادر يا كريم ، والأنف كبير مزرود والفمُ الخالى من الأسنان مفتوح على آخره ، تنتشر على سقفه بقع بيضاء حليبية، ثبت عينه عله يكتشف ملامح الأب فيه ، لكن الوجه ،الفاقع الحمرة مطموس ، لا يزيد عن قطعة لحم شائهة ، تصرخ بآخر الجهد ، وتفلفص تحت القماشة التى سقطت علي الجانبين ، فبدا الجسد كله بحمرته الكامدة، وانطلقت اليدان المرتعشتان ، وتحركا نحو العينين تدعكان فيهما ، ثم فجأة اندفعتا لتخمشا وجه العربى ، فمد يديه نحو سليم الذى مال بوجهه إلي اللفة وسأله العربى : وجدت له شبيها يا (أبو زيدان) ؟

– هذا ابن بندر .

وقال الحاج ساخرا :

– إلحق غنمك لتسرح فى زرع الناس .

– شنبى على حرمة إن لم يكن من بلدكم .

– واختفى فى خيمة الشبورة ، بينما سار العربى وراء حمارة الحاج رافعا اللفة بين يديه يتفادى النظر إلى العينين المحملقتين ، ساحبا جاموسته التى يساقط من جسدها الماء فيصنع خطا فوق تراب الطريق .

– قرأت المكتوب ؟

– الكتابة غير واضحة .



بيوت العرب هى أول ما تقع عليه عين الداخل إلى تل الهوى ، من ناحية اليمين، لا تزيد على بيتين، أولهما لصبيح ، والثانى لسليم، صبيح صاحب ملك، تقع أرضه فى (المارس) الممتد خلف داره، وله مراح – من الأغنام والماعز – كبير، ويسرح به مع ابنته مسعدة، بينما تمكث فى الدار سليمة زوجته وسلامة أمه، وولده الصغير حسن .

الدار تترك مساحة أمامها، تظللها أشجار العبل والتوت، وتتوزع فى ساحتها صوامع الغلال ، ثم الجسر ، فترعة (الميرية) إلى جوارها – الجدار فى الجدار – دار سليم التى تسكنها عالية ، وابنتها وهيبة ، أما المساحة التى كان ينبغى تركها تشبها بدار صبيح فقد شيد عليها غرفة لفتحية، لصقها تماما ترى ظهر دار الحاج، ترك مساحة معقولة لتفتح طاقات الزرائب ، وأقام سورا صغيرا ليحفظ لجاره ملكه .

كان صبيح فوق فرشته ، يتابع النار فى إناء كبير ، وسليمة أمامه تقلب الخبز الطرى، والتمت الأسرة على الحصيرة، تنقل اللقيمات وتراقب الطريق ، بينما تجمعت الأغنام والماعز فى المساحة الخالية .

وتقلبت على أنف الحاج روائح الخبز مختلطة برائحة الضأن .

قال له العربى : صبيح يحييك يا حاج .

لم يسمع الحاج ، فكلاب صبيح أطلقت نباحها، قامت من رقادها ووقفت على

الجسر قاطعة الطريق ، زجرها العربى، ولما تعرفت على القادمين جعلت ذيولها بين سيقانها الخلفية، وعادت إلى نومتها قرب الحصير .

– صبيح يصبح يا حاج

– ميل عليهم يا عربى .

– خلينى أنا هنا

وقف بجاموسته على الجسر يحاول ضبط اللفة التى أرهقت يديه، وعاود الولد التملص، وانفكت الخرق مرة أخرى، ارتفع الصراخ، فعادت الكلاب تحوم حول ساقى العربى ، مطت أجسادها، وزمجرت، كانت تتشمم أطراف جلبابه، ويحاول أحدهم الوثوب إلى اللفة .

– أمش .

– تسمح يا صبيح كلمة .

قام الرجل متجها نحو الحاج، وضع نعليه فى القدمين وتقدم وهو يلوك بقايا اللقمة التى نالها على عجل .

– يا شيخة سلامة تسمحى .

– خير يا حاج ؟!!

همس إليهما من فوق حمارته، ثم أشار بعصاه نحو العربى ضرب سلامة على صدرها، واتجهت إلى الجسر تخب فى جلبابها الأسود المزركش بنقوش صغيرة ملونة بالأخضر والأحمر، ثبتت عقدة الحزام الأبيض الملتف على خصرها، ودون وعى منها، وحملقت فى قطعة اللحم الصارخة فى اللفة. التحقت بها زوجة ابنها وحفيدها، التفوا حول العربى يمصمصون شفاههم بدهشة .

– لاحول ولاقوة إلا بالله ،

لم يتحرك صبيح نحو الجمع، ظل واقفا أمام الحاج، ممسكا رقبة الحمار، يحرك لسانه فى فمه متوهما أن اللقمة باقية وأنه لم يبتلعها بعد، كان يخشى ارتفاع الشمس قبل التمكن من الخروج فى وقته المعتاد، كان يود العودة إلى فرشته، حول النار يكمل إفطاره، ولكن ها هو جاره، ساكن المدينة، يأتيه بحكاية مزعجة .

وما دخله بهذا الموضوع ؟ ولم سأله هو بالذات ؟ وما يعلمنا أنه قد أتى به من بلده يريد أن يلقى هذه التهمة على أهل العزبة؟ ثم لماذا بدأ بنا نحن العريان، وهو كما يعلم أنهم أشرف الناس، وهم لايختلطون بفلاحى هذه العزبة؟ لايدخلون أحدا منهم دارهم إلا لضرورة كحاجتهم لنفر من الانفار، حتى هذه فإنهم يفضلون استئجار الرجال من القرى الأخرى، يكفى ما استأجروا من أرضهم .

لقد ثبتوا أقدامهم فيها، ولن يتزحزحوا عنها أبداً، البركة فى عبدالناصر الذى ملأ أذانهم بالكلام الفارغ، حتى جعل المستأجر منهم كصاحب أرض .

– وأين وجدته يا حاج ؟

– قبل الهدار بخطوتين .

– يعنى بعيد عن العزبة .

– وبمسافة أبعد من البلد .

– أهل العزبة غنمة نايمة وغنمة قايمة .

– قصدك أنه من البلد .

– البلد واسعة يا حاج .. لو كان من هنا .. كنا ...

– أين مسعدة يا صبيح ؟

- وما الداعى لهذا السؤال يا حاج ؟

- ابدا ... سليم قابلنى وقال أنه طرد فتحية، مسعدة يمكن تناديها من الخص وراء الدار .

- مالنا دخل بسليم ومشاكله .

- أقرب الناس لهم .

- أبدا يا سيدى .

- أنت مالك على الصبح ؟

وتدخلت سلامة العجوز لتهدئ غضبة الحاج قبل أن تنفجر .

- صبيح لم ينم يا حاج من زعيقهم طول الليل .

- السؤال حرم .. هذه مصيبة لقيتها على الصبح ألا نسأل عليها .

- سؤالك فيه إتهام .

- أعوذ بالله .. أنا أقول إن البنت تبحث عن فتحية، لا أكثر ولا أقل .

- لم تدخل البنت فى الموضوع يا حاج ؟

قالت سليمة وهى تعيد إحكام لفة الولد .

- مسعدة ستسرح مع أبيها ... لا وقت لديها للبحث عن فتحية .

- لم يقل ذلك من الأول .

- ها أنا أقول يا حاج، لا دخل لنا بلقطاء، ولا دخل لنا بمشاكل سليم .

- الله يسهل لك طريقك .

- وعاد بحمارته إلى الجسر متجها إلي داره، وصاح فى العربى .

- تعال ... ربنا يتولاه .

ثم التفت إلى الوراء ليقول لصبيح .

- على العموم المستور يبان .

وابتلعته الشبورة مرة أخرى، ولكنه لم يسمع زمجرة صبيح ولعناته لهذا الصباح الأغبر .

وعاد ليجتمع مع أسرته فوق الحصير، وبعد فترة قصيرة شملهم الدفء الذى تنفثه جذوات نار كادت تخبو فى الإناء . وظلت سليمة مصدرة أذنيها نحو باب الدار تتسمع لأنات واهية، تتردد فى الأعماق المظلمة لقاعة معبقة بدخان التبن .

●



لم تعد سلامة إلى ساحة الدار، فارقت دفء المنقد ودخلت من الباب الواسع، ضلفة واحدة عريضة مركونة بحجر الرحى .

الظلمة تشمل الردهة، وتخفى الأشياء المتناثرة (المزيرة) الأسمنتية يتقطر من أسفلها الماء فى إناء كبير من الصاج، مقاطف، وفئوس، ومناجل، وهناك فى آخر الظلمة جمل بارك يلوك بقايا طعام، وأبواب الغرف مفتوحة كلها، تسقط نورا باهتا، تتبعت التنهدات الحارة، ومرقت جهة اليمين، وهى الآن واقفة أمام طاقة تستقبل الضوء والضباب معا، والحزمة البيضاء تسقط جميعها على الوجه المحموم .

دنت من فراشها، وراحت تنقل الخرقة المبلولة من الإناء إلى الوجه تعصرها حتى تجف، ثم تبقيها لبعض الوقت من فوق الجبهة، فاستدارت البنت نحو جدتها بعين تطلب الغوث فلا تجده .

– ألف سلامة .

ولملمت أطراف الغطاء الوبرى حول جسدها .

كانت تنام فى ثوبها الأسود المربوط من وسطه بحزام أبيض عريض.

– أشرب .

– عينى .

وخرجت إلى الردهة لتملأ الكوز وقبل أن تفعل هذا مالت على طبق قديم، ثم مزقت ورقة من كراسة حسن، حين رآها الولد وهو يرتدى مريلة المدرسة صاح فى وجهها .

– ضيعت علىّ الواجب .

– أعطني ورقة فارغة .

– لا أملك ورقا فارغا .

– هات يا ولد ورقة .. ثم املأ هذا الطبق بصابيص نار .

كانت مسعدة قد رحلت مع هلوسات الحمى .. لم تعد ترى ما حولها، هاهى عائدة ذات مغرب، الغنمات أمامها شبعى بما طعمت من نبات الأرض،هى الآن تدخل بها زريبة الحاج عبدالله، بعد أن خلت من دوابها، استأجرها صبيح لتقضى ليلها بدلا من النوم أمام البيت . ورأته هناك . كانت كلما واجهته تجمع أطراف شاشها حول الوجه، وتدع عينيها السوداوين الجميلتين تنظران بخفر، ينتفض القلب، ويصرخ بين الضلوع . «ماذا يريد ابن الحاج؟» .

أنا بدوية، وهو ابن مدينة، ولا يصلح الزواج بيننا، لكن للقلب شئون ، لماذا يهتز بدنى كلما التقانى فى طريق. هاهو يحاصرنى فى هذا المكان المغلق ليتشمم، أنفى رائحة عرقة مختلطة برائحة الضأن .

يسقط عنى غطائى، ويحل عن وسطى حزامى، بالجرأته واقتحامه، إننى أقاومه بعزم جسدى، وتطلبه نفسى فى آن معا .

– حرام عليك يا ناصر .

– أنا قتيلك الليلة .

وعاثت أصابعه فى أنحاء جسدى ، ووجدتنى بين جدارين لا حول ولا قوة،

تسقط يداى فى همود إلى جنبى، وادع له شفتى يمصهما بنهم، وبدون إرادة منى، وجدتنى ارفع الذراعين إلى أعلى إلى أعلى، لتضمانه إلى صدرى كيف حدث لى أنا البدوية، أن استسلم لرجل ليس من عشيرتى ؟

ها أنا أخرج من باب الزريبة كل ليلة، دون أن يلحظ أحد من أسرته، بينما هو يتسلق الحائط ليصل إلى سطح الدار ، وكان جسدى يتهيأ له كلما دخل الغروب .

وها أنا أراه مرة أخرى، بعد أن غادر العزبة مع أهله كنت أسير فى شوارع مدينتهم هل كنت ابحث عنه، أم أننى كنت ذاهبة إلى سوق الجزيرة ؟

لا أدرى ..

سمعت نداءه من الخلف ، وكدت اسقط إلى الأرض .

– تعالى .

رحت معه دون أن أسأل ، إلى أين ؟

كنت مغيبة تماما، وكنت مشتاقة إليه جدا .

– لا أحد فى البيت .

ومرة أخرى وحدنا فى دار مفروشة ببلاط يلمع فى نور نوافذ كبيرة لها ضلف من زجاج، فراشه مرتب ونظيف، وغرفته واسعة يعم أرضها السجاد المزخرف، وتتوزع الصور على جدرانها الأربعة .

– هل ذقت شاى البوتاجاز؟

– أتعيرنى يا ناصر ؟

– حاشا لله.

هذه المرة فارقتنى روائح الضأن شعره يضوى فى النور، ويفوح من جسده

عطر لم أعرفه فيه، هل كان هو نفس الشخص؟ أم أن المدن تبدل ناسها ؟ هذا لايهم، لقد تعرف عليه جسدى ضمتنى ذراعه العفية إلى صدره .

وانفكت ثيابى عنى، وسقطت جميعها على أرض الغرفة لأجدنى ممددة ومستسلمة، على ملاءة بيضاء ، ويتقلب رأسى على وسادة تبعثر على ليونتها شعرى الطويل .

– باسم الله أرقيك .. والرب يشفيك .

وانفتحت الجفون الثقيلة على الجدة تنقل الطبق الذى فاض دخانه العبق ، فملأ الغرفة :

«هل أنا هنا أم هناك؟ هل سيأتى كما وعدنى ؟ وكيف اللحاق به ؟ (ارمى بنتك للتمساح ولاتزوجها لفلاح) هكذا يقول أهلى . وهو – وإن كان ابن مدينة – فلاح ، وابن مدارس .

ياويلى .. ياويلى »

– قل أعـوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شـر الوسـواس الخناس..

«سلامة ترفع أصبعيها الى مآقيها ، وتنثر ماء العين فوقى ، اشهق ، هل من نهاية لهذا الأمر ؟»

– إشرب .

– ياحسن .

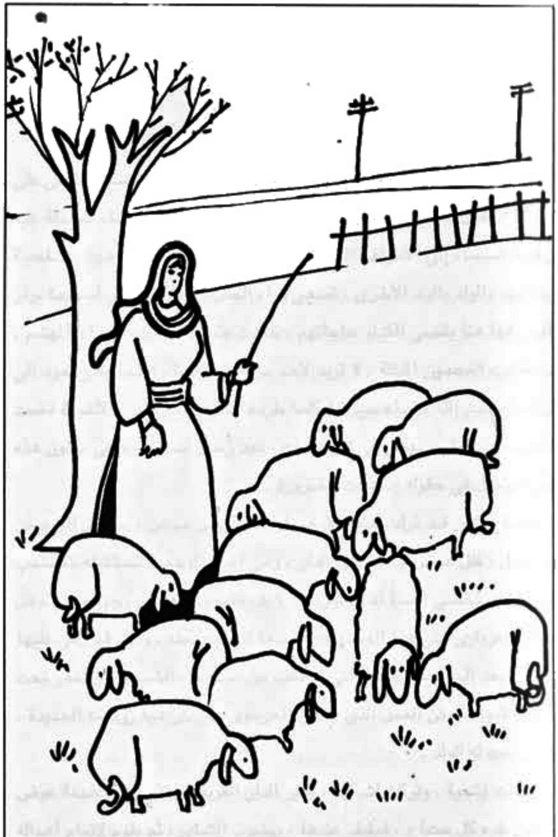
«أخى الصغير يقف بمريلته خلفى ليرفع رأسى ، فيميل سقف الغرفة لينطبق على الأرض . هل من نهاية لهذا الأمر ؟ لى ميل للغثيان ؟ فهل هو الفرج ؟ »

وارتاح الرأس مرة أخرى فوق غلظة المسند .

– رح أنت لمدرستك .

«الماء يسيل فى جوفى ، فيتبرد .. آه .

ورفعت كفى إلى شفتى ، فصدمنى جفافها » .



خلف دور العرب لم تقع عين فتحية على شيء البتة ، فالضباب غطى على مساحة الحقول الممتدة ، والنبات استسلمت عيدانه للستارة البيضاء المسدلة عليه من قبة السماء إلى الأطراف المثقلة بالندى ، وهى التفت فى خرقها ، ساحبة البنت بيد والولد باليد الأخرى ، تسعى وراء الجدران التى انتشر أسفلها براز جاف . فها هنا يقضى الكبار حاجاتهم ، تفادت عثرات الطوب والزجاج المهشم ، كما تفادت الغصون المبللة ، لا تريد لأحد من أهل العزبة رؤيتها وهى تعود الى دار الحاج عبد الله ، فهذه سيرتها كلما طردها سليم ، وفى المرة الأخيرة قضت ما يقرب من العام ، تعيش فى دار الحاج ، بعد رحيل أسرته ، ترعى شئون هذه الدار ، وتعمل فى حقوله إذا دعت الضرورة .

والحاج كان قد ترك رعاية الأرض لولده الكبير عوض ، مقابل الربع من المحصول ، ظل عوض يتردد على الدار ، وهى المرأة الوحيدة تستقبله كصاحب ملك ، كانت تخشى ألسنة أهل العزبة .. كيف تقيم وحدها مع رجل غريب ، هل يصمت العرباوى على هذا الوضع فلا يعيدها الى عصمته ، وكان قد رمى عليها اليمين ، بعد إلحاح من عالية التى لم تكف عن استدعاء الشيوخ ، والحفر تحت عتبات الأبواب لدفن العمل الذى يحض العرباوى على كراهية زوجته الجديدة ، بعد أن رمت له الولد .

وأهملت فتحية ، وتركت لشأنها ، تدير الدار الغريبة ، وتقوم على خدمة عوض يأتى من بلده كل صباح ، فيفطر عندها ، ويشرب الشاى ، ثم يقوم لإتمام أعماله

، إذا كانت هناك أعمال ، فهو يستأجر الأنفار لكل شغلانة ، ولا يمد يده الى فأس قط ، مجرد خولى ، يراقب العمل ، ولا يقوم به ، ثم يعود إليها ، أو تذهب هى إليه بصُرة الغداء ، إذا دعته الضرورة للبقاء بين الأنفار .

وعند نهاية الموسم ، يباع المحصول ، يبقى لنفسه القدر المتفق عليه ، ويمنح أباه الباقى ، واكتفى الحاج بالتردد على العزبة فى أوقات متباعدة .

ذات يوم قال لها : سأقضى الليلة هنا .

- الدار دارك ياسى عوض .

أهل العزبة لم ينتبهوا لهذا الأمر ، إنهم لايضبطون له وقتا بعينه ، فهو يتحرك بحرية ، يأتى كيفما يشاء ، ويغيب وقتما يشاء ، وإذا رأوا ، فإنهم لايتحدثون إلا همسا ، فاللوم على هذا الخائب الذى أطلق سراحها ، والبنت مسكينة ، لا أهل لها ، فماذا تفعل بفمين يطلبان اللقمة ، فهى تعيش مضطرة ، وابن الحاج وإن كانت عينه ملآنة ، فإن الشيطان شاطر .

ويقول أحدهم : ماذا سيرى فيها ، إنها مجرد امرأة ، جلد على عظم ، لا تغرى أحدنا لأن يستر عورته ، إذا مرت أمامه .

- ولكن المرأة هى المرأة .

- إن زوجته ست وهانم ، فهل يعقل أن يتنازل عن التفاحة من أجل عود قصب؟

- ربنا يستر .

ولم يستر فى كل الأحوال ..

عوض مهد الطريق ، ذات قيلولة ، تمدد بطوله فى ردهة الدار ، وكانت هى جالسة قُباله على عتبة الباب ، وفكر فى الأنثى البائسة أمامه ، لم يفكر إلا بدافع الحرمان ، لم يقرب زوجته منذ أكثر من الشهرين ، فالدار التى تركها له والده ، كان قد هجرها ، هدم قوالبها اللبنية ليقيم دارا من الحجر ، تليق بهذا الزمان ، وتتوافق مع وضعه الجديد كمشرف على أملاك سيرث الكثير منها بعد رحيل الأب ها هو قد وضع يده عليها ، والرجل سنواته معدودة ، وسيصطف الورثة عن قريب أمامه ليطالبوا بحقوقهم ، وسيعطيهم على شرع الله ، وفقا للضرورة ، وفى الوقت الذى يراه مناسبا ، سيطرته صارت شاملة ، ونهائية .

وفى هذه القيلولة التى هيجت دمه نحو فتحية المستحمة والمكحلة عيونها بخطوط غليظة ، أعادته لأزمنة قديمة حين جرجرته خادمة البيت ذات ليلة ، فادفأته فى صدرها العظيم ، ثم فركت آلته ، فاكتشف ذلك العضو فى جسده ، وهاهو يكشف عنه لفتحية ، فتشهق ، وتضرب صدرها بقوة دون أن ترفع نظرها عنه .

- دارى نفسك ياسى عوض .

- وجبة ثقيلة لم أفرط فيها منذ شهرين .

- وفرها لحلالك .

- كيف أعثر على حلالى يافتحية ، وهى تنام فى غرفة واحدة مع الأولاد فى بيت أبى .. انظرى إليه ،

قامت عن العتبة لتدخل غرفة فارغة ، ليس فيها غير حصير مهترىء ، ووابور جاز ، ولمبة ذات زجاجة مسودة ، وحلل من الألمونيوم مطبقة الجوانب ، وللغرفة نافذة معتمة تطل على الجرن ، ودار عبد الكريم البعيدة ، غلق باب الدار ، آخر ما رأته عيناه من مشاهد الخارج ولدى فتحية وهما مكبين تحت الصفصافة ، مشغولين بإقامة بيت من الطين .

دخل عليها ، ولم يسعفها جسدها التحيل فى المقاومة ، هل كانت راغبة فى سبر أسرار ذاتها ؟ ربما ، فكرت فيه لحظة من اللحظات ، ولكنها كانت تراها

بعيدة جدا ، لم يستطع عقلها المحدود توقع حدوث ذلك ، وهاهو يحدث واقعيا فاستسلمت له ، وكأنما تعيش حلما رأته سلفا .

– الأولاد بره ..

– إنهما مشغولان عنا .

أوقعها على الفرشة ، ولم يخش على ملابسه البيضاء المزهرة فقد نزعها ع جسده ببراعة ، وألقى بها جانبا ، وكان عاجزاً عن السيطرة على شهوته المتقدة وتجاوبت فتحية معه بآخر نفس فيها ، ثم قامت تلطم خدها .

– كل هذا يخرج من جسدك يامكلوبة .

– لنى فى الحلال ياسى عوض .

– تستحقى العيش تحت سقف هذه الدار .

عاشت على هذا الأمل ، ولم تعد تخشى الناس ، بل لم تعد تراهم من حولها ، إنها تتهيأ له كزوجة ، وراحت تعتنى بزينتها وزيها . وأجادت التعامل مع الأولاد ، بعد أن أفهمتهم أنها صارت زوجة له .

وبدأ هو يبحث عن مبررات المكوث فى الدار .

وجسدها الذى ارتوى بعد طول قحولة ، صار يمشى متغندرا ، مزهوا بنفسه حتى طمع فيها رجال آخرون ، وكانت تتأبى عليهم . كيف لمثلها أن تحط من شأنها فترضى بهؤلاء الأجلاف .

وحلت من جديد فى عين العرباوى ، طالبها بالعودة ، فتدللت ، وتمنعت ، وكانت تعدو وتروح أمام داره ، فتصك أذنيها تنهيدته الحارة ، وكانت لاتلتفت إلى ضرتها السابقة لما ترمى الكلام عند مرورها على الجسر .

– ردت فينا الروح .. ياترى .

وتميل فتحية نحو الترعة ، وتبصق بصوت عال ، تحاول عالية الهجوم عليها

بعد أن العرباوى يحجز بينهما ، ويهمس الى فتحية وهو ممسك بذراعها التى اكتست باللحم .

– اسمعى الكلام وعودى الى دارك نربى العيلين .

– وهل تسمى دارك دارا يارمة ؟

– مردودك إليها .

– لما تشوف حلمة أذنك .

ولكنها الأيام ، تدور دورتها ، وتعدو سراعا دون إرادة منها ، فهذا الحاج عبد لله يكشف المستور قبل بيانه ، الولد لص محترف ، إنه يعكس الوضع المتفق عليه يعطى الأب الربع ، ويحظى هو بالأرباع الثلاثة ، وهاهو يتأكد بنفسه حين جاءه الخبر ، فسعى إلى المدينة المجاورة ، وأمسك زمام الجمال المحملة إلى تجارها ، وعاد بها مع الرجال الذين اعترفوا خشية من الحاج .

ثم إن فتحية اعترفت فى لحظة زهو لم تدرك عواقبها ، حين أُمرت ذات يوم بالذهاب الى الجزيرة لترفع محصول الذرة الى سطح الدار ، ليكمل تجفيفه ، رأتها الحاجة تترنح على الدرجات ، وتئط تحت القفة الملآنة بالكيزان .

– مالك يابنت ؟

– أبدا ياحاجة .

– لاتقدرى على رفع دورين وكنا نراك كالرهوان .

– الحمل ياحاجة .

– حمل !!

– حفيد للحاج .

– حفيد مَن ؟

– أنا زوجة سى عوض .

ولم يكذب الأب خبراً ، سعى فى الصباح الباكر ، ورمى أشياءها القليلة ، وألقى بها على الجسر ، وجرجرت هى الولد والبنت ، وقعدت تحت السنطة تبكى حالها .

وأنهك جسدها البكاء ؛ دون أن يميل عليها أحد من أهل العزبة ، حتى جاءها سليم آخر النهار ، أنام الغنمات خارج غرفتها ، وأخذها إليها لتعيد ترتيبها ، شلشلت عالية أمام وجهه ، وصرخت وهيبة : كيف تعيد النجاسة إلى دارك ؟

– أم ولدى .. ولا أفرط فيها أبدا .

وفى هذه الليلة انقلب حاله ، فشيطان عالية لم يكف عن أفعاله ، وقد وقعت عين فتحية على الحب المنثور أمام بابها ، بعد أن لمحت طرفا من عمة الشيخ الذى جمع جبته القذرة ، واختفى وراء الأشجار ، انتظرت المصيبة .

وخيب الله ظن شيطان الضرة ، فها هو سليم يعود بغنماته ، لم يدخل من باب عالية ، إنما دخل عليها ، واحتفى به زيدان وأخته ، فأوقدت فتحية نارا ، وضعت له عشاءً سخنا ، ولم يحفل بصراخ عالية فى الخارج ، كبح جماح نفسه ، كان مهتاجاً ، يتطلب هذا الجسد الذى انشغل به طيلة النهار .

وفى آخر الليل حاول الوطء فلم يفلح ، اعاد المحاولة ، ولكن آلته لم تسعفه ، هل هى الشيخوخة اللعينة ؟ أم أن عالية وجهت جهد شياطينها نحوه ؟

بلا كلام فارغ ، قلّب فتحية ذات اليمين ، وذات الشمال ، وهى الكلبة لم تكن معه بالمرة ، كانت عيناها تقعان على دنيا أخرى ، حين تهيأ لها الأمر ، وفتحت له سيقانها ، ظن فى نفسه القدرة وتقدم إليها ، وجدها الفاجرة تضمه إليها بلا تحفظ ، وكانت عيناها على إتساعهما ، ورفعت رأسها لتقبله من شفاهه الجافة ، ولم يكن معتادا على القبل ، سقط على جسدها العارى حين سمع صرختها .

– ياعوض .

رفع البلغة المحملة بالطين والقش وفضلات الماشية ، وجرى وراءها عاريا بينما هى جمعت هلاهيلها ، ورفعت عيالها إلى جنبيها ، لتغادر الحجرة إلى الخارج .

وها هى قابعة خلف الجدار تسترها شبورة الصباح ..

«هل سيقلبنى الحاج مرة أخرى؟ داره فارغة ، وعوض عاد إلى أرض الإصلاح ، ولا علاقة له بأرض العزبة ، وهو بحاجة لمن يرعى داره» .

كانت تؤمل نفسها ، وهى فى جلستها بانتظار قدومه من بلده ، ثم استدارت إلى آخر الجدار ، لترقب ساحة الجرن الواسعة ، ولتشهد وقوفه أمام الباب .

تركه العربى وحيداً يعالج قفل الباب ، ومدد الولد على الأرض ، فظل يتقلب في لفته حتى أخرج أطرافه منها ، انفكت الأقمطة ، وتناثر عليها التراب ، وامتد الذراعان الصغيران إلى عينيه المنتفختين ، كان يدعك دموعه بكفيه ، ويرفس بساقيه المسلختين ، ولم ينتبه الحاج عبد الله لمحاولته القيام نحوه ، والتشبث بأطراف جلبابه . فأصابعه كانت ترتعش بالمفتاح باحثة عن الثقب ، فلا تجده ، ضباب من حوله ، وضباب فى عينيه ، والأشياء صارت أطيافاً فاقدة لوجودها المجسد .

«ما هذا الذى يصرخ تحت قدمى ؟ وما هذه الدار التى افتح غلقها؟ ومن أنا حتى أتحمل كل هذا الجهد فى مطلع نهار كئيب ، يبدو بلا نهاية ؟

هل كانت أم ناصر معى تقلب الأرغفة على جمرات الموقد ، وتصب لى شاى الصباح من براد كبير أسودت حوافه ؟ هل خرجت كعادتها إلى الباب الخلفى ترقب رحيلى إلى العزبة ، وتدعو لى بالسلامة ؟ هل صليت الفجر جماعة ؟ أم أن كل هذا قد حدث فى الماضى ؟ إن حياتى كلها يوم واحد لا يتغير .

وهذا الباب كان – يوماً ما – عتبة أحلامى القديمة ...

كنت أراه باباً لقصر منيف ، أقمته فى جنة عمرى ، حين نادى المنادى ذات صباح بعيد ، وردد المذياع كلاماً كثيراً عن ذهاب الملك ، وجلاء الانجليز ، واعادة الأرض إلى أصحابها . دخلت من هذا الباب بخرقة بالية ، ليكتسى بدنى بأفخر ثياب . دخلته أجيراً ، وصرت بين جدرانه مالكاً .

رحل زمن الباشوات ، وجاء زماننا .

منذ كم عام وقع هذا ؟ أيام عتيقة اختلطت وقائعها بهذه الشبورة التى تلف المكان» .

وتقدمت إليه فتحية كشبح من هذا الزمان ، خرجت من بين البخار يلتف حولها ولداها ، كانت تقدم قدماً ، وتؤخر أخرى ، والحاج لم يلتفت إليها ، كان يلهث وهو يدنو بوجهه نحو القفل الأسود الكبير .

– عنك أنت .

وانحطت ذراعاه إلى جنبيه مرهقتين ، نفخ البخار من بين طقم الأسنان ، ولم يحفل بكينونة الشخص الذى تقدم إليه ، ليعاون شيخوخته المرهقة .

وانفتح الباب أخيراً ..

انحنى على الوليد ليجمع بعثرة قماطه ، فكاد يسقط على وجهه .

– عنك أنت .

وجمعت بيد أم مدربة اللفائف المهترئة ، لم تسأل نفسها بعد عن هذا الطفل ، ولمن يكون ، وعلاقة الحاج به ، إنما شغلت بهذه النظرة المتأملة الطويلة ، كانت الجفون الكبيرة المطبقة قد رفعت عن حدقتين واسعتين لعينين سوداوين عميقتين . هل تجاوبت الشفاه فابتسمت ؟ لا تستطيع الجزم بذلك ، كل ما فى الأمر أن الطفل فزع ببدنه النحيل نحوها ، ودون جهد منها رأته يميل على صدرها ، كأنما قام وحده ، بطاقته هو ، ثم فاجأها تلمس اليد الصغيرة لثدييها . هل انبثق النهد بفعل يديها أم كان هذا من عمل يده ؟ لا تدرى أيضا . لقد لقمه ، وراح يعضعض فيه بفم خالى من الأسنان . أكان يجد فيه ما يطعمه ؟ هو الوحيد الذى يقطع بهذا ، أما هى فقد أحست بسريان خفيف فى شرايين الثدى ، كما أحست بتجمع السائل على حافة الحلمة ، كما رأت بأم عينيها فائض حليبها على شفتى

الرضيع ، كانت إلى هذه اللحظة مستندة على الضلفة المغلقة . لم تنتبه لدخول الحاج إلى ظلام الردهة ، ولا بمروق الحمارة بين الضلفة المفتوحة ، واحتكاك البرذعة التى لم ترفع عنها ، شدّ الباب إلى الوراء ، وأحدث صوتاً عالياً ، كما لم تنتبه إلى ولدها الممسك بذيل جلبابها ، وتطلعه الحسير نحوها ، فقد شعر أن أمه سلبت منه ، وقف يتأملها بحيرة ، لا يستجيب لجذبة أخته ، كانت تدعوه للعب تحت الصفصافة الكبيرة التى تقطر نداها على مساحة من الجرن ، وفوق المداود الطينية المشيدة أسفلها .

– مالك يا بنت ؟ ادخلى .

هذا هو الحاج الذى انتظرها طويلاً بالداخل .

– ابن من هذا يا حاج ؟

– ابنى .

– ما شاء الله .

– صدقتى يا هبلة .

– ولد الولد ولدك .

– ولا حفيدى .. هذا ابن واحدة منكن .

– ماذا تعنى ؟

– رمته واحدة من نساء العزبة فى البرسيم .

– الشر بره .

– اسم الله عليك .. وأين ابن عوض منك ؟

– أيام وراحت لحالها يا حاج .

– فى أى جحر رميت الولد يا فاجرة ؟

– دفنته فى حفرة خلف جدار دارك ، وقلت له : هنا أنت تقيم فى ملك جدك .

- ناصحة يا بنت ، كان كبيراً ؟
- باسم النبى حارسه كان ابن ثلاثة شهور .
- وأنت يابنت تنامى لكل من يميل لك رأسك ؟
- الشيطان شاطر يا حاج .
- ممكن يشطر معنا يا بنت ؟

وابتسمت فتحية بخفر ، وطأطأت برأسها إلى أسفل ، وفردت كفها تهدهد على ظهر الولد ، فدفق الكثير من اللبن على صدره ، سحبت طرف القماط لتمسح حليبها المهدر ، ودنا منها الحاج ، أراد التطلع إلى وجه الولد ، ليناغيه ، لم تكن ملامحه قد تأكدت له بعد ، لأنه رآه بين غلالة الشبورة . ها هنا وسط الردهة الدافئة يستطيع تحديد القسمات ، والإطلاع على الحروف المكتوبة على جسده ، وخلط بين البطن المكشوف وذاك الثدى الساقط عليه من فتحة الجلباب «يخرب عقلك كل هذا الكنز مدفون في صدرك» ومد أصابعه الطويلة الجافة ليكشف الخرق عن البطن المشرب بالحمرة ، غير أن الأصابع لم تطعه ، وأرادت شيئاً آخر ودون إرادة منه تقريباً ، انحرفت إلى الثدى ، تسكعت على هضبته قليلاً ، فجفلت فتحية ، ورنت إليه بدهشة .

- يشبه من من بنات العزبة ؟
- من ؟
- الولد .
- ربنا أعلم .
- يمكن يا بنت يكون ابن عوض .
- الله يسامحك يا حاج .
- سبق وحملت منه .

- خذ الولد .. أنا ماشية ، وربنا هو الرزاق .
- يا عبيطة .
- ومن يتحمل ابن غيره حتى يثبت نسبه ؟
- الولد شهيته جاء ت عليك ، ثم كيف تدفق هذا اللبن من صدرك ؟
- ربنا مع الغلابة أراد أن يطعم هذا المسكين .

كان الولد قد انهى رضعته ، وبدأ يتنفس بثقل ، وسقط ذراعاه إلى جنبيه ، ثم حانت منه التفاتة إلى الحاج ، فحدق فيه ، ولم يرفع عينيه لفترة طويلة .

- شبعت يا تنبل .

فجدد عويله ، ودغدغه فى صدره : خلاص .

وسأل فتحية : شايفة كتابة على بطنه ؟

- أبداً .
- العربى قال كان فيه كتابة .
- نازل بها يعنى ؟
- الله أعلم .

وضرب فتحية على ردفيها ، فانتفض بدنها حتى كادت تسقط الولد على الأرض .

- جهزى له فرشة .

وأشار إلى واحدة من الغرف الأربعة التى يتكون منها البيت . كانت غرفة زوجته الأولى ، قضى فيها سنوات قبل قدوم الجديدة بأولادها ، جمعهما لمدة وجيزة ، ولكن الأولى آثرت العودة إلى البلد ، حيث أقامت مع أولادها الكبار . وهناك بين كنائنها وحفدتها منهن لفظت أنفاسها ، وبقيت الزوجة الجديدة فى هذه

الدار . فرشت غرفها جميعاً ، حجرة للضيوف ، وحجرة للخزين ، وحجرتين للنوم.

- أم أنك تفضلين البقاء فى الغرفة المجاورة لسليم .

- إن لم تكن تريدنى للخدمة معك .. دعنى .

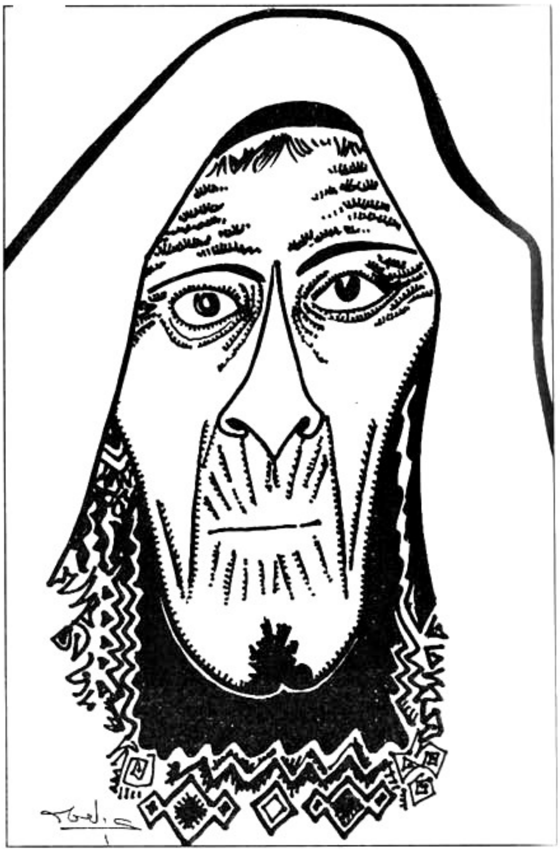
وسمعا الطرقات على الباب ..

وأظلمت الردهة حين تتدافعت الأجساد ، لتحجز الضوء ، وتسحب أبخرة الشبورة إلى الداخل .

وكظم الحاج غيظه ، حين رأى أهل العزبة يقتحمون داره ، وكز على طقم الأسنان المعلق فى فمه .

- الله يلعنك يا عربى .

●



ـى حوله ، أوراق الشجر المصفوف على الجسر ، وجسد
ـس ، وسرواله الداخلى الذى تشبع بماء الترعة حين اندفع إليها
يسحب الجاموسة العطشانة ، سار بمحاذاة الحائط الحجرى لمسجد لم يكتمل
وضع الحاج أساسه فى مساحة من الجرن ، ولم يتجاوز البناء قامة الصبى ، ثم
اضطر لإقامة المداود داخل أسواره التى تنتهى إلى مدار الساقية . هذا المكان
المرتفع حيث واجهه جرم عبد الكريم واقفاً بالصديرى والقميص الأبيض تحته
سروال من البفتة . كان يستند بكفه على جذع التوتة الواقفة على حد المدار ،
حيث تنتهى أرض الحاج عبد الله ، وتبدأ ساحة داره . كان ينصت للأصوات
دون أن يرى أشخاصها ، ولاعتياده الوقوف فى مثل هذه الساعة من الصباح
يتوقع العابر أمامه دون مشاهدته ، فهو يحفظ الخطوات ، وطريقة المشى ، ونداء
كل جار لبهيمته ، والوقت الذى يخرج فيه إلى حقله .

– ولد يا عربى .. رجعت للعمل عنده ؟

– صباح الخير يا عم عبد الكريم .

– رجعت له يا ولد ؟

– كنت أوصله للدار .

– وهل تاهت منه السكة اليوم ؟

– معه ولد صغير .

– أخر المتمة لا يجد غير راعى من العيال .

- ولد عثرنا عليه فى البرسيم .

- عثرتما عليه !!

- فى أرض البرسيم المقابلة لأرض عم سعد .

- سعد ابنى ؟!!

- أ ..

- ومن رمى بهذا الولد هناك ؟

- الحاج يقول اكيد واحدة من بنات العزبة .

- قطع لسانه .

- ولمح إن عم سعد ربما يكون وراء الحكاية .

- والله عال .

- أنا لم أقل شيئاً يا عم عبد الكريم .

- مالك أنت .

- أنا أقول ما سمعت .

نفض عبد الكريم طرف القميص ، ومسح ما تساقط على طاقيته الصوف من قطرات الشجرة ، وانحدر نحو داره .

لم تكن داراً واحدة إنما هى دور عدة ، اسكنها أولاده . الباب الأول لدار قديمة يسير جدارها مع قناة الماء الخارجة من أسفل المدار ، وتنحنى قليلاً لتلتف حول فدان الأرض الخلفى المزروع بأشجار الليمون والجوافة ، وتتوزع بين جذوعها أنواع من الخضراوات وفقاً لمواسم زرعها . قد تزرع بالكرنب أو الخس ، وربما زرعت بالطماطم والخيار ، وغيرها من الأصناف ، وهذا الفدان يمتد من حافة القناة ليشمل آخر حدود ، دور عبد الكريم وأولاده .

لم يدخل من الباب الأول الذى تقبع زوجه أمامه تفرد أقراص الجلة الطازجة ولم يلتفت إلى الباب التالى حيث يقطن على أصغر أبنائه . آثر أن يكون الأقرب إليه لمحبته الزائدة له ، تقوم على الجانب الآخر دار أخيه الأوسط ، تجاهل عبد

الكريم النظر نحوها رغم رؤيته لولده عبد العليم الجالس بين أبنائه وزوجته يلبد كرسى الدخان ، ويحتسى شاى الصباح .

- تفضل يا أبا .

بو ينهش لحمك . قالها هامساً بحكم العادة .

عبد الكريم يقاطع هذا الولد ، فقد رأى ميله نحو الحاج ، وتأكد له أنه سوف يخذله . ليحظى هو بالإشراف على الأرض كبديل لعوض . «وهذا العبيط لا يدرك خطة الحاج ، فهو يريد إضعاف عزوتى بأبنائى» .

«غدا يعرف أن الذئب لا يؤتمن على الغنم أبدا ..»

وانحرف إلى باب الدار الأخيرة ، فوجد سعد فى نفس وضع أخيه ، تجتمع أسرته على طبق اللبن الرائب ، وطبق آخر من الجبن وقطع المخلل .

- يا سعد .

وقام فزعا على صوت أبيه

- تعال .. تفضل

- وجدوا لقيطا فى غيط البرسيم المجاور لأرضك .

- وما دخلى أنا فى الموضوع ؟

- الحاج خرا هو الذى عثر عليه

- ربما أتى به من بلده

- هذا ما سنؤكده

- وما علاقتنا نحن بالموضوع ؟

- ألا تعرف علاقتنا بالموضوع يا ابن القديمة .

والتفت سعد نحو زوجته ، ثم قام عن فرشته ، ليدنو من أبيه الذى أبى الدخول إليه .

كانت الشبورة قد انقشعت فى دائرة معقولة تظهر خلية النحل التى أقامها سعد أمام داره ، وحام بخارها الهش حول صوامع الحب الطينية القائمة فى صف بين الأبواب .

أمسك عبد الكريم بيد ولده ، وجذبه بقوة نحوه ، وهمس له من بين نواجزه .

– إياك تكون ...

– والله مالى دخل

– وهذه المرأة

واشار إلى الجهة الشرقية حيث تخفى الشبورة أرضه المؤجرة من مصلحة السكة الحديد .

– من ساعة الحكاية إياها لم ...

–ألم تتردد عليك فى الغيط بعدها .

– لم يعد لها وش تنزل هناك

– تعال

الجرن منخفض قليلا عن الجسر ، فكانا يصعدنا باتجاه السور الذى يسيج ملكهم ، شيده عبد الكريم بقوالب من الطوب اللبن ، جلبت طينتها من الأرض السوداء بعد الحصيدة ، وصبت فى قوالب خشبية ، ثم جففت فى الشمس كان هذا بعد أن حسم القضاء الحكم للحاج ، فى النزاع حول ملكية دور العزبة ، فاضطر كل ولد للتفاوض معه على حده ، يذهب الى الجزيرة يحوم حول بيته الأيام الطويلة حتى يسمح له بالدخول ، فيجده جالسا بين كراسى الصالون المذهب ، يضع ساقا على ساق ، يفرد كفا تحت فتحة الصديرى ، ويضم الأخرى فى قبضة متوترة على مسند الكرسى .

لم يبع لهم الحاج الدور بسعر موحد ، وصل مع الأب الى أعلى سعر يطيقه ووصل مع عبد العليم الى أقل سعر ممكن « على مزاجى .. ومن لا يعجبه يشرب من البحر.. وتفضل من غير مطرود .. وسنكسر وراءه الف قلة .. »

واكتشف أهل العزبة حيلة حققت لهم بعض النتائج قالوا : أم ناصر سيدة امرأة ، وتتعاطف مع من يرفع لها الشكوى .

فكان أحدهم إذا أفلح فى الوصول اليها يجلس بين يديها متطلعا إلى وقارها الذى يشع من سحنة مشرقة راضية ، تزيدها وضاءة تلك الطرحة البيضاء الشفافة، وهذه اليد الطاهرة التى تبعث فى حبات مسبحة من الكهرمان «أبوس يدك يا حاجة .. العيال ما خلوا ورائى ولا أمامى .. »

– اترك الأمر لى .. وبأمر الله ..

– البركة فيك يا بنت الأصول

وكان اذا وصل أحدهم إلى السعر الذى حدده لنفسه ، يعد الحاجة بألا يشيعه فى الآخرين ، فيقوم إليها ، ويهجم على يدها ، ليلثمها بانحناء ذليلة ، وبدموع رجل مقهور ، لا يملك غير أن يتوارى من أمامها ليخفى إحتقانة عينيه بكميه السابغين .

وقبل أن يصلا بداية السور لمحا أطراف الرؤوس ، تنعكس عليها أشعة واهنة لشمس تجاهد فى الخروج من كفن الضباب ، هذا الضباب المنسحب ، والذى اتخذ له طريقا صاعدا نحو السماء كان يرتفع فوق الأسطح متسلقا الأقراص الجافة للوقيد ، وعيدان الحطب المكدسة ، وزاحفا على الأجساد الملساء لصوامع الحب .

رأى سعد هذه الرؤوس تسعى بلا أقدام على حافة السور ، ولم يع بعد أن الجميع ذاهب الى هناك ، إلى نفس الوجهة التى يسحبه أبوه إليها ، وكان عبد الكريم منشغلا عنه ، يكظم غيظا ، ويرتب كلمات تعطل اللعبة الجديدة التى يدبرها خصمه .

وانتبه عبد الكريم إلى الرؤوس الزاحفة ، وإلى الزوبعة الترابية التى قامت من رقدتها ، فانتشرت ما بين السور وأوراق الشجر ، هذا الشجر الذى لم يكف عن سفح الماء ، والذى تخلى عن طيوره منذ ساعة مبكرة من هذا الصباح .

– الله يجازيك يا عربى .

– عربى ؟

– ابن (أبو جاب الله) قلب العزبة كلها .

وحين وصل عبد الكريم الى بداية الجسر ، رأى الشيخ زرارة يأتى متأخرا عن الجمع ، يجر ساقه المريضة تتقدمه عصاه الغليظة ، ويستند بكتفه على ذراع المعداوى الخفير .

●



صوت (الصباح) :

اتجه نحو الدغل ، لما رأيناه قطعنا لعبنا وسرنا وراءه (لم يكن يهشنا) وديعا كان ، علي ظهره القفة الكبيرة مطوية ، والقدم حافية .

انحني يلم ما تجمع تحت جذع السنطة ، همس أحدنا : ألا يقرف ؟

قال واحد منا : هذا عمله .. اذ سألت أبي يوما لم يفعل ذلك ؟ اجابني يحتاجونه هناك في بلاد الرمل يخصب الزرع .

الولد الصغير الذي يتبرز انزل جلباب علي مؤخرته المكورة البيضاء انزوي في خجل ، همس واحد من الأولاد : بعد يومين تجف ويأتي لجمعها .

ترك الدغل ، واتجه أعلي كومة السباخ .

بعدها انحرف خلف جدران الدور ، كانت - هناك - ظلة مغرية ، افترش الأرض ، واخرج من عبه صرة ، كانت جبنا ، وخبزا جافا ، طلب ماء ، جري أحدنا ليأتي بالكوز من داره القريبة .

الحقول خلف الدور ممتدة الي البعيد .

تركناه ، كنا علي الجسر حين رأيناه علي آخر دورنا يسير غربا نحو القري المجاورة ، والأفق من بعيد ينفخ البخار .

●

تل الهوى لا تعيش حدثا كبيرا كل يوم ، ولا حتى كل عام وإذا نبشت ذاكرتها فإنها تستعيد هذه الفاجعة التى وقعت منذ عشر سنوات تقريبا حين استدرج أحد الخفراء صديقه نغمش ليسيرا معا ليلا من الجزيرة باتجاه هذه العزبة .

وهناك عند انحناءة الطريق ، حيث تظلل الجميزة العتيقة عشة من الخوص ، خرج من بابها رجلان آخران ، استطاعا السيطرة على نغمش ، وكتفا يديه ، ثم لفا الحبال على جسده ، ليثبتاه على جذع الجميزة ، وتمكن الخفير من إطلاق النار على نغمش ، ليخلو له الجو مع زوجه .

وواقعة العثور على لقيط ، بعثتهم من جديد ، فهذا حدث يستحق الانشغال به اليوم ، وغدا ، وحتى عشر سنوات أخرى ضرب الدم فى عروقهم ، وتضاعف نشاطهم الخامد ، فانطلقوا من ظلمات الدور ، يشقون ستائر الشبورة التى راحت تشف ، وتفارق أرضهم .

كان للخبر الذى ألقاه العربى فى آذانهم وقع مدهش ، فهم لا يدرون ، هل من حقهم الخشية من الإتهام الذى يصيب بناتهم وزوجاتهم ؟ أم يكتفون بتلقيه كحدث غريب عليهم ، ولا يخصهم فى شىء كمصرع نغمش الذى أتى به صديقه ذات مساء من بلدته ، ليقتله على الشاطىء الآخر من ترعتهم ؟

حقا أفزعتهم طلقات الرصاص وهى تهتك صمت الليل الساكن ، و ... وإنهم ليذكرون عبورهم ماء الترعة ، ليصلوا إلى موقع الحادث ، ليعثروا على القتيل وقد تدلى رأسه على صدر مزقته الطلقات .

والطلقة هذه المرة أطلقها العربى فى سمعهم ، فخرجوا إلى النور ، لا إلى الظلام كما حدث فى الواقعة القديمة ، خرجت عائلات البدو ، وعائلة عبد الكريم ، وعائلة الفيران وها هو الشيخ زرارة برفقة المعداوى يسعيان على تراب الجسر المبتل وها هو عبد الكريم يخرج إليهم بصحبة ولده سعد ، ثم ينضم إليهما ولداه الآخران ، على وعبد العليم .

– صباح الخير يا مولانا .

– قل السلام عليكم يا عبد الكريم .

– والنبى إنك رايق .

– ومن أين يأتى الخير فى هذا النهار ؟

– من دار صاحبك يا سيدى .

– أ .. بدأنا اللت والعجن على الصبح .

– أى عجن يا مولانا ؟ ألا تذهب إليه فى البلد وتأكل طعامه .

– قلبك أسود .

– أنا قلبى أسود لأنى خنت أهلى .

– والله الرجل باع أرضه بمزاجه .

– أنت آخر من يتكلم يا معداوى .

– تقدر تقول للناس باع لك بكم ؟

– وانت مالك يا سعد ؟ أسأل أخاك عبد العليم بكم اشترى ؟

– عندك حق .

– وهل هذا وقت البيع والشراء وفيه مصيبة فى عزبتنا .

– عزبتنا أم عزبته ؟

– إخرس يا ولد .

– وفى النهاية كل واحد قاعد فى داره .

– وكافى خيره شره .

– المهم صون العرض .

– إذا كان العرض مصانا يا مولانا .

– ما قصدك يا عبد الكريم ؟

– لا قصد ولا يحزنون .

وضحك ولده سعد ، واخفى عبد العليم وجهه بعيدا عن نظرات الشيخ ، ومال على أذن أخيه على ليقول له همسا : شفت رمى الكلام .

أما المعداوى فقد طأطأ برأسه ، وانفكت يده من ذراع الشيخ ليتركه يسير وحيدا ، فالكلام يعنيه بالذات ، وعبد الكريم يشير الى علاقته بامرأة الشيخ ، فالعزبة جميعها تتحدث سرا عن عشقه لها ، وهو يتصرف مع المرأة كأن أحدا لا يراهما البته ، فهو صديق الشيخ ، ولا يحلو له قضاء وقته إلا على المصطبة أمام داره ، وهناك تجالسهم المرأة التى تعقد منديلها على ناحية ، هى شابة صغيرة أتى بها الشيخ من قرية مجاورة ، عقب وفاة زوجته الأولى ، أم أولاده كانت تقيم بين أهل العزبة كامرأة غريبة لا تصاحب أحدا من نسائهم ، وإن احتاجت لشيء فإن زوجة المعداوى تسعفها به ، وتقاربا ، وتزاورا ، وعضد هذا القرب والتزاور علاقة الشيخ بخفير العزبة فكانا يقضيان السهرة على المصطبة بين نسائم الصيف الرائعة أو فى حجرة الضيوف حين يحل الشتاء بزمهريره .

وتقدم عبد العليم ليأخذ بذراع الشيخ بدلا من المعداوى الذى انسحب الى الوراء .

ومال عبد الكريم على أذن سعد ليقول له : اتلم المتعوس على خايب الرجا ....

وشد على أباه من كمه ليسكته : خلاص يا أبا .

فاستدار إليه الشيخ ضاربا عصاه فى الهواء .

– ولم يسد حنكه على الصبح ؟

فرفع عبد الكريم كفه إلى فمه صائحا وهو يكتم ضحكته .

– سدناه .

بعد أن خلع جسده منهم ، توقف وحيدا لبعض الوقت ثم آب إلى داره عازما على تحقيق مادار في رأسه ، عند سماعه الخبر .

كان يسير ما بين السور الذى يحجز دور آل عبد الكريم والترعة التى يدوم على سطحها بخار خفيف ، يبدو لعينيه عبر جذوع السنط المنتشر بطول الشاطىء كفاه قابضتان على شيء غير مرئى ، وفكاه مضمومان بينما تتلوى شفتاه بكلام كظيم ، يندفع عبر ثناياه ، فقد أشعلت تلميحات عبد الكريم غضبه ، وكشفت سترا حرص على كتمانه . الناس ترى مالا تراه ، والعشق لاخفاء له ، حتى لو كان عفيفا طاهرا . ما للناس وما يدور فى القلوب ؟

«أنا لا انكر أن صدرى نحوها متقد كفرن الخبيز ، وإن لم أنل منها ما يخدش عفافها ، أجمل أوقاتى أقضيها بين حيطان دار الشيخ ، ولحضورها قوة لا تقاوم وامرأتى شعرت بتوددى إليها ، ولامتنى فى ذلك مرة ، وانهيت الأمر معها ، حتى لا تعاوده . هذه امرأة غريبة تلوذ بالناس . والمفروض أننا أقرب الجيران إليها .. والنبى – كما تعلمين – وصى .. فقاطعتنى . أنا لا أنكر حق الجيرة ، وأنا اعرف أن البنت طاهرة .. ولكنى أخشى كلام الناس .. فالرجل كبير وهى صغيرة السن . وقلت لها بما يشبه كلام الواعظ .. صغر سنها هذا يجعل من قربنا لها ضرورة . المهم أنتما صاحبتان فلا تجعلا ثرثرة الآخرين تؤثر على علاقتكما .

واقتنعت بكلامى بينما أقضى ليلتى على فراش من نار ، كنت ومازلت اشتهيها هل أنكر هذا ؟ ولكنها من جانبها لم تبد غير المشاعر الطيبة ، بكل الحرص ،

والتأدب ، دون تجاوز ، صحيح حين أجالس زوجها فإن عيني لا ترفعان عن بدنها الكنز ، المضموم في جلباب نظيف ، يلتف حوله بإحكام ، فيظهر مفاتنها أكثر مما يخفيها . وهي تفاجأ بعيني النهمتين ، ترتجف جفونها ، وترتعش رموشها المكحلة، وتغض النظر ، متشاغلة بما بين يديها . تراعي براد الشاي على وابور لا يطفأ أبدا ، ثم تحفن السكر من علبة الصفيح ، وتقلبه بعناية ، بعدها تقوم لتشطف الأكواب وتجففها ، وتمسح الماء عن الصينية ، وتصب الشاي رافعة البراد إلى أعلى ، وممسكة بيدها الأخرى الكوب ، ويسبقني رأسي إلى هناك حيث أدفسه تحت إبطها ، اتشمم ريحه ، واسعى به على صدرها الناتيء تحت ظلال لبة الجاز. هل كانت تشعر بكل خلجة من خلجاتي ؟ الله أعلم . ولكني زعمت لنفسي أنها تريد ذلك ، دون زيادة أو نقصان . إنها تحب حبي لها ، لأن البسمة الجميلة لا تفارق وجهها ، والغمازتان تظلان على حالهما ما بين البسط والقبض ، باستطاعتها أن تزجرني ، أو تقول بعينيها : كف عن هذا .

ولكنها كانت مرحبة دوما ، ولا أبالغ حين أقول إنها تهلل لذلك : يا أهلا .. يا أهلا .. عم المعداوي يا شيخ .

لو تزيل عم هذه ، إنها تقف في حلقي كاللقمة في الزور ، إنها تذكرني بفارق السن بيني وبينها ، وأين يكون هذا الفارق إذا قيس بزوجها ؟ وإني لاتساءل :

كيف تنام لهذا الرجل ؟ هل يمتعها ؟ بوضع سره ... والدهن في العتاقي .

أي عتاقي هذه التي تدفن في شيخوخته بهجة هذا الجسد الريان ؟

إنني منذ عرفت هذه المرأة لا أجامع امرأتي إلا بصورتها ، هذا سر أسرار قلبي ، وكل ما أخشاه أن أصرخ ذات ليلة باسمها ، فيفتضح أمري .. وماذا أخفي بعد ذلك ؟ لقد كشفت الملاعين المستور .. عزبة نجسة ، وسأنتقم منهم جميعا بطريقتي الخاصة .

كنت أهجس لنفسي أنهم لن يسكتوا ، وأنهم سوف يثرثرون حول علاقتي بالشيخ .

تأكد لي هذا ، يوم رآني سعد وأنا في دركي أحوم حول دارها كان قد خرج من الباب الخلفي ، وكل دور العزبة لها بابان ، باب بحري يطل على أشجار الجوافة والليمون ، وباب قبلي يفتح على ساحة تتصل بجسر الترعة ، والبحري يخرجون منه لقضاء الحاجة ، وكان سعد يسير متلصصا بين الأشجار ، وحين سمعت وطء قدميه على الأوراق الجافة ، صحت جهة الصوت .

– من هناك ؟

– أنا يا معداوي .

– ماذا تفعل عندك ؟

– كما تفعل أنت .

– أنا في دركي .

– هل قصروا دركك على دار الشيخ ؟

– أنا لا أدع مكانا إلا واذهب إليه .. كل ليلة .

– لا أراك أبدا جهتنا يا معداوي .

– ربنا يعمي نظرك يا سعد .

وقلت في نفسي : ربما لا يقصد شيئا بعينه ، أو ربما قصد . وقلت لنفسي : تهون إذا كان سعد هو مصدر الخبر ، فهو الآخر واقع لشوشته مع المرأة التي تعيش وحيدة ، بالقرب من أرضه المحصورة ما بين المصرف وشريط القطار . رحل عنها زوجها ، وكان قد استأجر الأرض من المصلحة ، وهي لا تعدو شريطا طويلا لا يزيد عرضه عن العشرة أمتار ، اشترك مع سعد في إقامة (تابوت) يرفع لهما الماء من المصرف الى الأرض المرتفعة ، وبعد رحيله سحبت المصلحة الأرض،

وضمها سعد إلى مساحته ، ومكثت المرأة فى الحجرة الوحيدة المقامة على رأس الحقل ، مهددة فى كل حين بالطرد ، إذا وقعت عليها عين الملاحظ وسعد يدفع للمسئولين من أجل بقائها .

– إلى أين العزم يا عكاوى ؟

ظهر أمامه فجأة ، فأخرجه من أفكاره ، كان يرفع صرته تحت إبطه ، يجر نعليه فى تراب الجسر ، فيحدث خطا غويطا ، إذا رآه السائر عرف أن العكاوى مر من هنا ، والأولاد الذين توزعوا بين جذوع السنط قطعوا ما كانوا فيه ، وأسقطوا أطراف جلابيبهم إلى أسفل ، وتحلقوا حوله ، فحضوره النادر ، يحدث بهجة بينهم فلا يكفوا عن الدوران ، ومناوشته من الخلف ، وهو لا يؤذى ولدا أبدا ، يوهمه بالهجوم ، ثم يهبط يده بالراحة على رأسه ، ويقول مبتسما : جاتك البركة..

– ذاهب إلى الحاج عبد الله لأعمل عنده .

– أنت يا ولد تركته من مدة قليلة لك وش ترجع له ؟

– طبيخهم حلو يا معداوى .

– ولم تركته طالما أنت مبسوط منه ؟

– ابنه عوض هددنى .. وأنا ناوى أقوله .

– الفتنة حرام يا ولد .

– لن أترك الحاج أبدا .

– سنرى .

– والختمة الشريفة .. جاتك البركة .

ومسح على رأس ولد تعلق بأذياله ، وفارق المعداوى متجها إلى دار الحاج .

كان يسير وسط حلقة الأولاد ، وتتبع واحد منهم الأثر الذى يتركه نعله على التراب ، وعمل بدأب على إزالته .

انعطف المعداوى نحو داره ، وقبل أن يدخل من بابها ، سمع صوتا خفيفا : يا (أبو أحمد) .

ورأى وجهها يبرز مضيئا فى عتمة الدار .

نسى كل ما حوله ، وتلاشت دور العزبة وسكانها وأشجارها وهمدت كل الأصوات التى تدوم فى أذنيه ، ولم يعد يسمع غير صوتها ، لم تر عيناه غير استدارة الوجه الأبيض فى طرحة سوداء خفيفة .

– ألم تر الشيخ ؟

– ذهب معهم إلى دار الحاج .

– صحوت فلم أجده فى فرشته .

– نادى عليه العربى من الشباك .

– أيريده الحاج فى شىء ؟

– أبدا ..

– ولماذا ذهب إليه ؟

– يقولون إن الحاج عثر على ولد صغير فى غيط البرسيم .

– عين أمه .

وضرب حنانها قلبه ، فدنا من المصطبة خطوتين .

– أنا ذاهب إلى الكفر لإبلاغ العمدة .

– وماذا يفعل له العمدة ؟

– هذه هى الأصول .. وهذا عملنا .

– لازم تبلغ فى الحال ؟

– لازم .

وتجاوز المصطبة ، ليقف فى فتحة الباب ، فلا يحجز بينهما سوى عتبة عالية .

هل غشى عليه ، فلا يخشى ما كان يخشاه منذ دقائق قليلة ؟

إنهما الآن وحدهما ، وهى تحادثه بما يشبه الدعوة ، فهل يستجيب ؟ هل يمد يديه ، فيقطف ثمارها الدانية ؟ أيجرب هذه الثمرة الحرام ؟ أم أنه يخشى ظهرها؟ العزبة كلها هناك ، وهو معها وجها لوجه ، خطوة واحدة ، يرفع قدما . فيكون بالداخل ، يقتحم حرمة جاره الذى أمنه على بيته ، ويهتك حرمة عمل أوكلته إليه الحكومة ، هل يكون الحارس واللص معا ؟

تل الهوى مشغولة بثمرة من ثمرات الحرام ، وهو فى طريقه لإنجاز عمله فى حماية الحلال . فهل يحطم القواعد ، ويستجيب لصراخ جسده ؟

هى خطوة . هل يجتازها ؟ فترتمى ، أو بالأحرى يرتمى فى حضن طالما اشتاق إليه .

ورفع ساقه إلى أعلى ، فليكن ما يكون ، عذابى فيما بعد أصعب من عذابى الآن ، ومدها إلى حافة العتبة المقامة بأحجار من الطين . هنا الجنة ، وهناك النار. لقد حسم أمره ، واختار .

هبطت الساق إلى أسفل ؛ ليلامس بطن قدميه نتوء العتبة ، وليرقب ظهرها الذى استدار إليه . كانت تنسحب إلى الداخل بهدوء ، وروية . تخض فى جلباب رقيق النسج يبدى ظلال جسدها ، حين انعكس عليه الضوء الصادر من الباب البحرى ، وعند اكتمال الخطوة ، سمع الصيحة .

- يا معداوى .

●

دار الفيران تلاصق دار الشيخ ، قبلها دار (أبو سعدة) المغلقة ، يقطعها من الجهة الشرقية سور آل عبد الكريم . كل الدور متشابهة ، نفس الباب ، ونفس النافذة الوحيدة للغرفة المطلة على الجهة القبلية ، نفس المساحات تقريبا .

يبدو أن الباشا صاحب الأرض قسمها فيما بينهم بالتساوى ، أو – ربما – يكون قد أسسها ، ثم وزعها عليهم حين حلوا بأرضه ، هاجر من العزبة من هاجر، فترك داره شاغرة ، ليضمها إليه من يحتاجها ، هكذا فعل عبد الكريم حين وسع على أولاده ، وهكذا فعل اسماعيل الفار ، حين ضم الدار المجاورة ، أما من بقى بها فقد ظل قائما فى مساحته المحددة ، جاء بعضهم من القرى المجاورة ، والبعض الآخر من الجزيرة ، ليعمل فى وظيفة حكومية مضمونة فضلا عن حصوله على القراريط لزراعتها . وكان المعداوى واحدا من هؤلاء ، أجر الدار ، ثم صار مالكا لها بعد أن ابتاعها من الحاج . هذا المالك الجديد الذى اشترى الأرض الزراعية ، والدور المقامة على رأسها . وكان قد انضم مع أهل العزبة فى القضية التى حكمت للحاج بالشفعة . دفع للمحكمة ثمن الدار مع من دفع ، وكرت السنون، تلو السنين ، وفاز الحاج بالحكم ، وقضى له بالتنفيذ بالقوة الجبرية ، حصل على الأرض المزروعة بأشجار الفاكهة خلف الدور ، ثم جاء الوقت ليحدد لنفسه سعر المتر من الأرض السكنية .

وتهاود مع المعداوى فى السعر كما تهاود مع الشيخ زرارة . لم يقف أحد منهما فى واجهة الصراع كآل عبد الكريم والفيران . وهذا ما ألف بين المعداوى

والشيخ . كلاهما حل بهذه الأرض ، ولم يك من أهلها . كان الصراع سابقا على قدومهما ، لحقا به مؤخرا ، كما أنهما لم يؤجرا أرضا زراعية من الباشا ليطردهما الحاج بعد استيلائه عليها ، كلاهما له عمل يرتزق منه غير الفلاحة ، فدعم هذا رابطة الود بينهما ، حتى كان دخول هذه الشابة ، فصار الود حبا خالصا ، واستحال الحب إلى نار متقدة ، فكيف يكون المصير فى لهيبها ؟

– يا معداوى .

الصرخة تتجدد ..

وهو يريد الدخول ..

– يا معداوى .

هذه صرخة عجوز ، اضطرها سقف الضباب للزحف على الأرض لتلتف حول بدنه ، فتطفىء جذوته .

وحانت منه التفاتة نحو اليمين . فاستعادت الأشياء وجودها . ها هنا صوامع للحبوب ، وكوانين مطفأة ، وفرن كبير اسودت فوهته ، وأعواد حطب منثورة ، وعيال يصخبون على الجسر . عائدين بعد زفة العكاوى ، وزريبة الفيران تبخ روائح روثها ممتزجة بأنفاس دواب قلقة ، تبغى الخروج ، وتقرصها ضروعها المترعة ، وأمام الباب المفكوك الأوصال والمركون بحجر كبير ، تقبع هذه العجوز فى جلبابها الأسود ، وطرحتها البالية تهش عن وجهها المقدد حشرة وهمية ، انسحبت عظام عضدها من الكم الواسع لتنتهى بكف يمسك بعصا قصيرة تنبش فى التراب .

هبط من ارتفاع العتبة ليتجه إليها . كان واثقا أنها لم تره إنما التقطته بحاسة أنفها ، انقلب إليها ريح عرقه الذى رشحه البدن لحظة التردد .

– نعم يا ام اسماعيل

– ماذا فعلتم ؟

– لم نفعل شيئا .

– ألم تذهب معهم ؟

– لم أذهب بعد .

– شفتك مع الشيخ واسماعيل .

– نعم .. هناك .

– تركتهم وجئت وحدك .

– قلت أبلغ العمدة .

– دواره فى الكفر .

– اعرف .. رجعت لألبس الجلابية ، وأخذ البندقية والجبخانة .

– وماذا ستفعلون بالولد ؟

– حسب ما العمدة يحكم .

– ألا تعرف أمه يا معداوى ؟

– وكيف أعرفها يا أم إسماعيل ؟!

– أنت خفير وتعرف البطال من العدل .

– هذا فى علم الله .

– وهذا شغلك .

– أترك الدرك للحرامية وأبحث عن الهلس .

– هذا عملك .

– والله عال .

– الحكومة تدفع لك من أجل هذا .

– أدور أنا على فراش الخلق بالليل .

- أنت لا تفعل غير هذا .

- لمى لسانك يا ولية .

- ولية !! الله يلعنك .

- قبر يلمك .

- يلمك أنت والفاجرة .

- قولى ياصبح .

- والله لأفضحك يا خفير الشوم .

كاد ينقض عليها غير أنه سيطر على أعصابه ، ولم ذيل قميصه إلى أعلى ، صارخا فى الفراغ الساكن أمامه «اللهم اخذيك يا شيطان» ، ثم بصق جهة العجوز .

- عزبة نجسة .

ولكنها لم ترتدع ، فصرخت وهى تنثر الرماد جهته .

- ما نجس إلا أنت .

ولم يعد إليها ، وآثر الدخول إلى داره ، ليكمل المشوار الذى عزم عليه .

●



دار الحاج عبد الله تحوز المساحة الأكبر من هذه العزبة ، فهو مالكها الجديد فى زمن ما بعد يوليو ، تتكون من أربع غرف كبيرة وزريبة ، تقطعها بالعرض حظيرة أخرى ، هى المكان الذى تم فيه لقاء مسعدة بناصر ، بعدها مخزن واسع للتبن ، تليه مساحة أخرى ، كانت تستخدم لتربية الدواجن ، أيام إقامة أم ناصر ، قبل رحيلها إلى البلد ، ثم أقيم فيها عدد من المناحل الخشبية .

يفتح باب الدار على جرن وصفصافة تميل أغصانها على حائط حجرى قصير، هو آخر ما تبقى من طلل المسجد الذى رغب الحاج فى تشييده يوما ، ولم يكمل بناءه ، خشية الموت . فقد ردد أحدهم فى سمعه «من أكمل مسجدا اكتملت أيامه فى الدنيا» فاختار الدنيا ، وأحال المسجد إلى مذاود للماشية . وجداره يمتد إلى مدار الساقية الخاصة بأرضه ، بعدها تأتى دور أهل العزبة التى تبدأ بآل عبد الكريم ، ثم (أبو سعده) المسافر هو وأولاده إلى بلاد العرب ، ثم عائلة الفيران فالشيخ زرارة ، فالمعداوى .

وتنتهى عند ساقية أخرى لرجل من الجزيرة ، يمتلك عددا من الأفدنة لا تقل عن ملكية الحاج عبد الله ، ولأنه تاجر كبير ، كان قد أجر الأرض ، وتفرغ لتجارته، يتردد على مزارعيه كل جمعة .

وهو رجل فى حاله لا يتدخل فى شئون العزبة ، فكأنما هو طيف ، يرى عابرا، ولا يقيم بينهم ، ورجال العزبة الذين يعملون فى أرضه بالأجر يتحدثون عن كرمه، وعن طعامه الجيد الذى يأتى إليهم فى سيارة (مرسيدس) قديمة .

أما الخلافات القائمة بين الحاج ورجال العزبة فقد خمد بعضها تحت الرماد، وظلت لبعضها جذوات مصهللة ، فى قلب عبد الكريم خاصة ، فهو لم يزل غير راض عن ظلم الحاج له حين باع له الدار بسعر مضاعف ، وهو – الآن – يريد الانتقام بتحقيق حلمه فى شراء أرض الحاج .

الرجل يعلم أن الحاج (رجله والقبر) . وأولاده عاجزون عن متابعة أمور الأرض ، فى زمن انقرض فيه المرابع ، وعز فيه العامل الزراعى . أما أولاده هو فلا عمل لهم غير الزرع والقلع . وإذا تم له المراد فإن مارس الحاج سيئول إليه ، وينقلب الحال . فتصير الساقية خاصة به وحده ، وينحدر ماؤها فى قناة لا تسقى أرضا لا يملكها .

إنه لا يطمع فى شراء دار الحاج الواسعة ، ولا جرنه ، ولا أطلال مسجده ، ليأتى إليها من يريدها . قد يحتاجها العرب لتوسيع مساحات دورهم . وإن كان يظن أنهم فى سبيلهم إلى هجر أراضيهم والعودة الى البلاد المجهولة التى هبطوا منها ذات يوم بعيد .

فصبيح ليس له غير ولد وحيد ، دفعه إلى المدارس ، بحكم العادة . لا يفرض استكمال شىء مما يستكملونه فى مراحل التعليم . وسليم له ولد وحيد من فتحية، لا يعرف أحد مصيره . هل سيختار حياة الرعى بعد أن يرث نعاج أبيه ؟ أم أنه سيسعى الى الحقول يعمل كنفر من الأنفار ، أو ربما تدفعه أمه إلى المدرسة ليحصل على شهادة تربطه بوظيفة حكومية ؟ أما البنات فمصيرهن إلى الزواج ، فلسوف يتوزعن على أقربائهن من البدو الذين يترددون على دورهم فى أوقات متباعدة .

لم يضطرب الحاج لدخولهم ، فقد كان لا يخشاهم ، وإن ارتجف بدنه قليلا لرغبته فى احتضان فتحية ، فى هذه اللحظة بالذات ، لم تكن رغبة عنيفة كتلك

التى كانت تواتيه أول شبابه . أين هو من تلك النار التى كانت تعفرت بدنه ؟ هل كان يريد اختبار البنت ليتأكد من أمور تدور بعقله ؟ أم انه يريد الدنو من امرأة عربية ، وينتظر ما يخبره جسده ، هل سيشتعل كما كان يحدث ؟منذ متى .. منذ.. قل عشرين سنة ، أو تزيد ، أو تقل .

إنه لم يرقب رغباته بالقدر الكافى . متى تدهورت عزيمته ، ومتى اكتفى بالفعل الشرعى مع زوجه ؟

هذه أمور انسحبت من الذاكرة . المهم أنه يراهن على لحظة تماس ، ويعيد مراقبة إحساسه . هل سينشط أم سيظل على خموده ؟

هجمة هؤلاء الأنجاس لم تسمح له بالمتابعة . هبطوا عليه بوابل من الأسئلة : كيف عثر على هذا الولد ؟ ولم ترك فى طريقه هو بالذات ؟ وهل عثر عليه وحده أم أن العربى كان بصحبته ؟ هل جاء فيما بعد ، ووجده وحيدا يتسمع صراخ الولد؟ وأجاب الحاج عن بعض الأسئلة، واعترض على بعضها ، واستسخف الكثير منها، وأبدى قلة احتفائه بالأمر . فهذا ولد لقيط وجده فى طريقه . ليس الوحيد الذى لقى فى طريقه ولدا بين زرعة البرسيم ، فكم من رجال عثروا على أولاد لقطاء .

وليقطع عليهم سيل الأسئلة أمر فتحية بأن تسحب حصيرا نظيفا لتفرشه أمام الباب .

واجتمع الرجال حوله ، يخوضون فى كل أمر حتى نسوا السبب الذى جاءوا من أجله ، وترك الموضوع للنسوة المجتمعات بالداخل حول فتحية التى رفعت الولد لى حضنها ، تهدهده ، وتحاول إلهائه بصدرها الذى أتى عليه ، ثم تقدمت الأخريات لمنحه أثداءهن فكان الولد قد مر عليهن جميعا ، ومص حليبهن وكلما رفعته واحدة عن ثديها ، يطلق العويل ، ويرفس برجليه ويديه ، فيأتيهن صوت الحاج من الخارج : اسكتوه .

كان قد احتد مع الرجال فى نقاش حول الأرض ومصيرها ، ظلوا فى حوارهم منشغلين لفترة طويلة حتي جاءهم هتاف النسوة : اسم الله عليك وحواليك .

ولما حانت من الرجال التفاتة نحو الهتاف ، فوجئوا بالولد خارجا إليهم ، وقد انفكت أقمطته عن جسده الصغير ، وتجاوزها عابرا العتبة العالية نحوهم ، مادا يده الى حافة الحصير ، ثم تقدم وهو ينظر الى الجميع بعيون ثابتة ، وهرول الرجال بفزع الى الخلف ، فاتسعت الحلقة ، والحاج الذى يركن ظهره على الجدار لم يستطع مفارقة المكان ، توسط الولد الحلقة ، وراح ينظر فى كل الجهات والشيخ زرارة ظل يغض الطرف عنه منشغلا بالبحث عن عصاه ، وحين وجدها أخيرا بين يديه ، نهض بها واقفا ، ثم تلهى مرة أخرى بالبحث عن بلغته ، كانت النعال قد اختلطت ، فالكل قد مال فى لحظة واحدة للبحث عن نعله ، حتى عبد الكريم الذى يدعى الشجاعة استند على ولده علي ، فجره حافيا نحو جذع الصفصافة .

لم يكن الخوف بسبب طفل يحبو نحوهم ، الرعب تجسد فى نظرة الولد إليهم، نظرة رجل ناضج ، يرنو إليهم جميعا بتحد ، وعزم ، وهذا ما لم تقع عيونهم عليه أبدا .

وتقدم الولد نحو ساقى الحاج المنعقدتين ، يبدو أنه قد أصابه شلل مؤقت . لأنه لم يستطع رفعهما ، وعجز تماما عن القيام كباقى الرجال ، واتخذ الولد مكانه ببراعة ، جلس على حجر الرجل الكبير فاردا ذراعيه الغضتين على فخذيه مدليا ساقيه القصيرتين الى الحصير .

كان الآن قد صار عارياً تماما ..

الأقمطة سقطت عنه قبل الوصول الى جلسته ، وبانت الكتابة على بطنه ، غير أن أحدا من الرجال لم يستطع فك طلسمها .

وخرجت النسوة من الباب فزعات ، منهن من هرعن نحو الجسر ، ومنهن من تماسكن فوقفن فى ونس الرجال يتابعن عورة الولد الساقطة بين فخذيه .

وانتبه الجميع – فيما بعد – إلى صمت الحاج ، فتجرأ الشيخ ودفع العصا نحوه عله يمسك بها ويتمكن من الوقوف ، غير أن العصا ردت اليه دون استجابة، نادت فتحية عليه : أبا الحاج . ولم يجب على النداء . ورأوا رأسه يميل الى الأمام دون إرادة منه .

صوت صيفى :

«توت .. توت» عدنا بيد كل منا كوز ذرة ، انتظرنا ، عربته الصغيرة يجرها حمار هزيل ، دس بوزه في كيس به تبن ، علي العربة المدهونة بالأبيض مظلة تنتهي أطرافها بزخرفة ، علي رف صغير مذياع صغير يقول كلاما كثيرا .

«هيس...» وشد اللجام .

اجتمعنا حول العربة ، علي العجلة وضع ساقه ، فتح العيون (كان في الرطوبة أبيض كندف القطن) سال لعابنا ، ناولناه الكيزان ، بيده النظيفة اللينة يخرجه مشتها ، يملأ به الطاقات الكثيرة ، قدمت نسوة من بعيد يحملن أطفالا يصرخون، بينما واحد منا تناول المزمار ، نفخ فيه ونفخ ، شده الرجل وألقي به في الصندوق، قال «تأدب» غافله آخر ، ومد يده بالداخل ، في ومضة كانت القطعة علي السبابة في فمه ، أغمض جفنيه ، سالت دمعة، دفعه الرجل بقبضته «تأدبوا . وإلا لن أبيع لكم . .» .

أمسك المذبة ، يطرد الذباب المتكاثر .

الولد الكبير طلب بقرش ، امتلأ القمع حتي آخره ، امتصها

بتلذذ ثمل . المرأة حصلت بكيزانها في كوب ، المذياع أنهي كلامه، بدأ يغني ، أكلنا ، وتمنينا لو نأكل ثانية ، وثالثة .

الرجل يزمر ، ويزمر .

نزل فلاح عن حماره . دفع القرش وحصل علي خمسة ، ألقاها دفعة في فمه .

تراهنا ، قال ولد منا ،استطيع أن آكل مائة ، قلنا ،لاتبالغ،

الرجل يزمر ، ويطرد الذباب .

رفع الكيس عن بوز الحمار ، ضربه ، سار بعربته قليلا ، وقف يزمر ، ويطرد الذباب ، ركب علي جانب العربة ، مشي الحمار بكسل ، رحنا ندفع العربة من خلف ، خبط أحدنا بعصاه ، جرينا ، واقترينا ، هدد بالعصا ، قذفناه بطوبة ، عدنا .

صوت المذياع يخشخش من بعيد ، والعربة صارت نقطة



حين رفعوا الولد عارياءعن حجر الحاج لمحوا الحروف الغامضة على بطنه .

كان العكاوى هو من تجرأ بينما ظلوا جميعا يحملقون فى الوجهين ، هذا الوجه الصغير المتطلع المشاكس ، والوجه الآخر المتغضن الشاحب . ويرقبون الولد وهو يرفع رأسه إلى أعلى لينظر فى عينى الحاج المغمضتين ، ويمد يده الغضة إلى ذقنه حاضاً إياه على الانتباه إليه ، لكنه لايستجيب لحركاته.

– حد يأخذ منه الولد يارجاله .

وتقدم العكاوى الى الحصير بعد أن خلع نعليه المفككين ، ورفع ذيل خلعته كأنما يتهيأ للوضوء ، ومال على جسد الولد : بسم الله الرحمن الرحيم . ورفع الولد يديه من تلقاء نفسه ، وارتمى فى صدر العكاوى .

وتحركت أوصال الحاج قليلا ، حاول النهوض فعجز .

– خليك على راحتك ياحاج .

لم تحاول واحدة من النسوة لمس الولد بعد انسحابه من بينهن .

– اقرأ المكتوب ياشيخ زراره .

صدّر الشيخ عصاه أمامه فى وضع استعداد للهجوم بها على من يهدده ، وانحنى بجذعه نحو الولد الممدد على ذراعى العكاوى . ظل يغمغم بكلمات غير مفهومة ، يدور حول الحروف من أعلى إلى أسفل . ومن شمال إلى يمين ، ويمد سبابته الغليظة على البطن ربما أحس نتوءها .

– صعبة إلى هذا الحد ؟

– هذه كلمات غير عربية .. الولد من نسل الجن .

– ياساتر !!

فتح الحاج جفنيه ، وراح يدور بناظريه فى المكان مذهولا .

– يارجل قل كلاما غير هذا .

– بلا جن بلا عفريت .

– هذه كتابة انجليزية .

– وكيف عرفت ياناصح ؟

– رأيت مثلها فى كتب محمد ابنى .

– نذهب إليه ليقرأها .

سار العكاوى فى المقدمة ، وزحف الرجال خلفه ينفضون الغبار الذى تثيره جرجرة أقدامه على تراب الجسر .

– شربة ميه .

وأشار الحاج بيده الواهنة نحو فتحية التى انسلت من بين النسوة لتتأكد من صاحبة الوجة الذى يطل مترددا خلف جدار المنحل . كانت تهمس لنفسها «ولِمَ لاتأتى هذه المرأة كباقى النسوة ؟ لماذا تقف وحدها هناك على أول الزرع تدارى وجهها بالشاش الأسود ؟ تبص مرة ، ثم تتراجع إلى الخلف حين تشعر بمراقبتى لها .»

وتركت الرجال فى جدالهم ، ودنت من باب المنحل ، وحين أطل الرأس ، رأت عيون مسعدة تبرق بين سواد لثامها .

– تعال يامسعدة .. تعال .

واختفت ولم تعد للنظر من جديد «ماذا تريد هذه البنية؟ لماذا اكتفت بالوقوف

بعيدا ولم تقتحم المكان كالباقيات ؟ ثم ان وجهها رغم خفائه كان يلمع بقطرات العرق .»

وعادت الى المكان ، أمام دار الحاج حتى انتبهت الى ندائه .

– شربة ميه .

– من عينى ياحاج .

ودخلت الدار لتحضر له كوز الماء .

●

دار سعد عبد الكريم ماهى إلا ردهة مستطيلة ضيقة مفتوح عليها ثلاثة أبواب لثلاث غرف ، تبدأ من عتبة الباب القبلى وتنتهى الى عتبة الباب البحرى .

مزدحمة الردهة بالأجولة . والزكائب ، وأدوات العمل .

تقدم سعد الجمع الى الباب الأخير ، وطرق عليه مناديا على ولده : يامحمد .

كان العكاوى لم يزل يجاهد فى السيطرة على أطراف الولد العارى ، لم يكف عن دفعه ، والتملص منه ، حتى كاد ينزلق ، ويفلت منه .

– يامحمد .

وانفتح الباب عن وجه شاحب ، يطل من ظلمة لاتبين شيئا حولها ، تناثرت شعيرات خفيفة على صدغى محمد ، وتساقط شعره الناعم على جبهته المبللة ، ضرب النور المفاجىء عينيه ، فتراجع الى الخلف قليلا .

– لاتخف .. نريدك فى أمر مهم .

وعاد الوجه إلى بهرة النور ، وارتفعت الأجفان ، وبانت الحدقتان الدامعتان .

– اقرأ لنا هذا الكلام المكتوب على بطن الولد .

ارتفع الحاجبان فى دهش ، حاول العودة مرة أخرى الى الدنيا التى اختارها لنفسه ، غير أن الشيخ زرارة تقدم الجميع ليربت على كتفه .

– بارك الله فيك .

وراح يهدهده على صدره ، ويمرر راحة كفه على انحاء البدن المهزول وهو يردد المعوذتين وعدية ياسين .

والجد عبد الكريم أزاح الشيخ بعنف مكتوم ، وتقدم من حفيده ليأخذه في حضنه ، واكتفى اسماعيل الفار والأعمام عبد العليم وعلى بالمتابعة عن بعد .

– ألف سلامة على الناجيين .

والدموع التي تكثفت على المآقي وجدت طريقها لتسيل على الخدود في قطرات كبيرة متماسكة .

– أقرأ ياولدى .

– هل هذه كتابة الجن أم الإنس ؟

– أنا قلت انجليزى ياشيخ ، بلا إنس بلا جن .

خطى محمد خطواته الأولى ليعبر عتبة الباب . وكان منذ دخل غرفته لم يفارقها . منذ متى كان دخوله ؟ سنوات كثيرة انقضت حتى نسيه أهل العزبة ، وهو من كانوا يفخرون بتفوقه الدراسي .

هكذا حدث فجأة ..

انتظر أبوه عودته من مدرسة الجزيرة الثانوية ، وطال انتظاره . خرج في موعده الصباحي المعتاد ، ولكنه لم يعد مع أذان العصر ، انتظروا يوما ويومين ، ثم انتظروا شهرا وشهرين ، ولم يأتهم خبر عنه قط .

بعدها سمعوا من أهل الجزيرة كلاما كثيرا .

فهناك من ادعى أنه رآه على شاطىء الاسكندرية ، وهناك من رأى شبيها له في مدينة أسوان البعيدة ، وادعى تلاميذ الجامعات أنهم رأوه يسرع الخطى على ظهر قطار القاهرة ، وقال بعضهم لمحت وجهه على رصيف محطة بنها .

الجميع أقر المشاهدة ، بنفس الثياب القذرة المهلهلة . يسير حافيا وبيده منديل مربوط الى عصا ، وزعم البعض أنه حين دنا منه ليأخذ بيده ، أو ليتأكد من ملامحه ، فلم يتعرف عليه ، ولم يبد دهشة ، ويمد إليه يده طلبا للإحسان .

– عد إلى أهلك فهم مشغولون عليك .

ينظر إليه بحياد ثم يتركه غير عابىء بشىء ، ويقطع الرصيف بين الزحام ، أو يدور بين كراسي القطار ، لاينبس بكلمة ، يكتفي بأن يمد يده مبتسما ، لايزعج أحدا ، ولايلح على أحد في طلب القرش .

واتضح وجوده على هذه الهيئة حين نزل الجزيرة يوما .. اقتحم دار الحاج عبد الله سائلا عن ناصر ، وقضى الليلة معه يقص عن رحلاته الطويلة ، ولما علم الحاج بزيارته أمر ولده بطرده .

– ولكن يا أبي هو صديقي .

– كان صديقك .. ثم إن فارق السن بينكما يقول غير ذلك .

– ولم يزل رغم كل شىء .

– كيف تصادق ولدا أهله جميعا أعدائي .

– حين سكنا العزبة كان رفيق الطريق الى المدرسة .

– لم تكن جامعيا في ذلك الوقت ، ولم يكن أمره قد اتضح بعد .

– أي أمر هذا ؟

– ألم تسمع عن وساخاته .

– اعرف أنه كان متفوقا ومحبا للدراسة .

– كان .. قبل أن يعرف عنه عشقه لنعاج العرب .

– نعاج !!

– ليس هذا كلامي .. العزبة جميعها رأته وهو مختل بنعجة العرباوى .

– نعجة العرباوى !!

– لم يترك له حيوانا ولا طيرا إلا ونام معه .

– هذا جنون .

– ها أنت تقولها بنفسك .

واختفى محمد أياما ، ثم عاد ليطرق باب الحاج ذات ليلة صيفية ، وفتح له ناصر ، لم يجرؤ على طرده ، كما أمره والده . ادخله حجرة الجلوس ، وهرّب اليه طعاما .

وحين سأله محمد : لماذا لاتفتح النافذة ؟

قال : الحقيقة أن الحاج أمرني بألا استقبلك ، وكل ما استطيع فعله أن اجعلك تقضي الليلة هنا . ثم تختفي من الفجر .

وأحضر له غطاءً خفيفاً ، ورفع صينية الطعام إلى الخارج ، وقبل أن يمرق من الباب ، قال : مدد طولك هنا ولاتخرج أبدا حتى اعود إليك .

التحق ناصر بأسرته التى اجتمعت فى الفناء الخلفى حيث تقضى أمسْيات الصيف الحارة ، الحاج يمدد ساقيه على الحصير ، وخلف ظهره مسند نظيف يحجز قميصه القطنى الأبيض عن الجدار ، والحاجة الى جواره تعد الشاى على وابور السبرتو الصغير .

حين قامت لتقضى بعض أمورها بالداخل ، سمعا صراخها المباغت ، فزع اليها الحاج ، وتراخى ناصر فى اللحاق به . وفى الصالة الكبيرة شاهدا الحاجة وهى تجرجر محمد عاريا ، ومال الحاج على بلغته ، وراح يلهب اردافه وهو يجأر: حرمت .. حرمت .

كانت الحاجة تلهث وهى تقص عليهما كيف سمعت صوت الدش فى الحمام «ياربى هل نسى ناصر الدش مفتوحا» ؟ وتقدمت بحذر لتضرب بظاهر يدها على الباب : مَن .. مَن بالداخل ؟

وسمعت الصوت اللاهى بفرحة الماء : أنا محمد .

– محمد مَن ؟

– محمد أبو سعد من عزبة تل الهوى .

وواربت الباب لتتأكد ، فلم تتمالك نفسها ، سحبته من ذراعه إلى الصالة ، وهو يدعك رغاوى الصابون المنتشرة على وجهه .

دفعوه إلى الخارج عاريا بعد أن رموا هلاهيله على أرض الشارع ، وظل ناصر صامتا غير قادر على النظر الى وجه أبيه ، والولد لم يستسلم ظل يدفع ضلفتى الباب صارخا : افتحوا يا أولاد الكلب .

ولم يحفل بارتداء ملابسه ، جعلها تحت إبطه ، وهو يدفع الباب بيمينه : افتح ياناصر .. أنا صاحبك .

اختفى عدة أسابيع ثم عاد الى الجزيرة يسأل عن ناصر ، فقيل له إنه مع رفقاء السهر عند زميلة لهم ، ووصفوا له البيت .

كان ناصر يزور زميلة الدراسة المريضة ، جلس بين جماعة من الزملاء ، وهى ممددة على فراشها تبادلهم الحديث ، واقتحم محمد الجلسة ، وجد لنفسه مكانا بينهم ، ولم تفارق عيناه وجه البنت .

كان ناصر يسمع لهاثه ويشعر بسخونة بدنه ، وسأله : مالك ؟

– صحبتك جميلة جدا .

ووجده دون أن يراعى أمر الحاج مشاركا فى جلسة الأصدقاء الذين يشاركونه السهر .

– ما اسم هذه البنت ؟

– رئيفة .

وسأله واحد من الأصدقاء : هل أعجبتك ؟

– جدا .

– وما رأيك فيمن هى أجمل منها ؟

– فيه !!

– يوووه .

واشار بعينه إلى ناصر ، والتفت إلى الأصدقاء ، فتواطأ الجميع فى الخطة التى دبرها عفو الخاطر . كان ناصر قد أبدى للأصدقاء رغبته فى التخلص من محمد .

– استطيع أن أحضر لك واحدة فى الحال .

– كيف ؟

– ولكن .. قبل ذلك هناك طلب بسيط .

– أطلب .

– لابد من التعرف على حجمك لنحضر لك من تناسبك .

وقف محمد على أطراف قدميه .

– كما ترى فأنا طويل جدا .

– لا نقصد طولك .

– ماذا تقصد ؟

– طوله هو .

– ماذا تعنى ؟

ورفع صديق ناصر جلباب محمد من أمام ، فعرف قصده ، فخلع سراويله فى الحال ، وطوى الجلباب أعلى بطنه ، ثم مد كفيه بعد أن بللهما ، وراح يمررهما على الجسد الصغير الراقد .

بعد أقل من دقيقة كان الصديق يميل على العضو النافر بالمسطرة ، ثبت طرفها فوق العانة وتمعن الأرقام ، ثم قام ممتعضا .

– لا بأس .. تكفيك واحدة مثل زينب .

– زينب من ؟

– لا دخل لك .. كل ما فى الأمر أن تختفى قليلا عن هذا البيت حتى أعود بها .

خرج الجميع إلى ظلمة الشوارع الساكنة . وكان الصديق قد طلب من ناصر إعداد جلباب حريمى فى الغرفة المقابلة .

ذهب الصديقان لإحضار المرأة الموهومة . وفى الشارع المعاكس سار ناصر متأبطا ذراع محمد الذى لم يكف عن اللهاث والالتفات إلى الخلف تابعة عودتهما بالمرأة : لا تنظر وراءك حتى لا تحرجها . زينب خجولة جدا .

– أخيرا يا ناصر سأنام مع امرأة .

وقفا قليلا على الناصية ، ولما تأكد ناصر من عودة صديقيه ، آب إلى بيته، دخل محمد الغرفة المظلمة ، وظل هو والصديق الآخر يتابعان المشهد .

فى البدء طلبت المرأة أن يخلع كل ملابسه ، فخلعها ، ثم طلبت أجرها ، فأفرغ كل ما فى جيبه لها . بعدها طلبت أن يمنحها ساعة يده فملصها من معصمه وقدمها إليها .

كل هذا وهو محموم ، يدور حولها ، عاجز عن السيطرة على بدنه الفائر ، كلما أراد الإقدام على المرأة واجهته صفعة مدوية على خده ، فيروح يتحسس آلامه ، ويعاود الكرة ، فينال الركلة فى بطنه ، حتى أصابته واحدة فى خصيتيه ، فسقط مغشيا عليه ، وخرج الصديق مرعوبا بعد أن رمى ملابس الحاجة أم ناصر أرضا .

– ماذا سنفعل به ؟

– إنك زودتها حبتين .

– قلت إنك تريد تأديبه حتى لا يعود إلى إزعاجك .

- هات كوب ماء لترشه على وجهه .

- وهات بصلة .

ورفعوا الولد إلى الكنبة العريضة بعد أن أضاءوا النور وحين أفاق فاجأته لمعة السكين وخنقة الأصابع القابضة على عنقه .

- عامل نفسك فتك يا ابن القحبة .

- أنا !!

- سأشرب من دمك .

- حرام عليك .

- تسحب أختى فى أنصاص الليالى يا وسخ .

- أختك !!

- هذه المرأة التى هجمت عليها لتغتصبها .

- عندك حق .. اذبحنى .

- سأقطعك للكلاب .

- فعلتها .. دافع عن شرفك .

وتدخل ناصر مدعيا الدفاع عنه .

- خلاص .. لن ينزل الجزيرة مرة أخرى .

- اغثنى يا صاحبى .

- لا ترنا وجهك مرة أخرى .

- إذا نزلت البلد اقتلونى .

- قم يا حيوان .

- اغتصبتها .

وعاد إلى تل الهوى .. لا يفارقها .

عزل نفسه فى هذه الحجرة ، تأتيه أمه بالطعام ، فينال قليله ، ويعاف كثيره، حاولوا إخراجه من عزلته ، فعجزوا ، احضروا له الشيوخ من كل البلاد فلم يفلح واحد منهم فى إقناعه بالخروج إلى النور ، والعودة لاستكمال دراسته .

- اقرأ لنا يا محمد هذه الحروف .

وقربوا الولد منه ، فمال بوجهه بطيئا ثم انتفض على اليد التى مزقت ما بين عينيه ، عاد إلى الوراء قليلا ، ورفع ذراعه ليمسح قطرة الدم التى سالت على أنفه.

- ماذا اقرأ ؟

- هذه الحروف .

- لا أعرفها .

- هل نسيت الانجليزية يا محمد ؟

- هذه ليست حروفا انجليزية .

- ولا عربية طبعا .

- هذه حروف سريانية .

- يا سلام !!

قال الشيخ زرارة ساخرا ، واستدار بكامل بدنه إلى الباب القبلى ليخرج من الدار كلية .

- جبتك يا عبدالمعين .. سريانية قال .

فلحق به عبدالكريم ليشده من أكمامه .

- هى نقصاك .

- الحمد لله سى عوض وصل .. ربما استطاع حل هذا اللغز .

وقفا على الباب ليستقبلا عوض الذى ينحدر نحوهم وجهه إليهم وظهره إلى الجسر . وفى أعقابه قدم المعداوى يخب فى جلبابه الذى يقضى به المشاوير الرسمية . كانت الجبخانة تنحرف على كتفه ، وتميل فوق صدره ، لتلف مرة أخرى تحت إبطه الأيمن ، وبيده بندقية الخفير النظامى العتيقة . ظل نفسه يشهق لفترة طويلة ، قبل أن يشرح لهم مهمته فى الكفر .

وكانت الشمس قد مالت قليلا لتواجه الدور ، ووقفت واهنة فوق أشجار السنط المشتتة الغبراء .

●



صوت الظهيرة :

الشمس رفيقة لينة قرب الدار ، تشد شعر الرأس وسط الحقول ، والخشبة ذات السيقان الأربع امتدت أمام الباب (شبهناها بجمل) تتدلي منها خيوط كثيرة، تنتهي أطرافها بحجارة مربوطة ، وهو أمامها يدخل العيدان وينسج عليها الخيوط، يداه خفيفتان ، يحادث الخالة وتعملان ، ينظر إلي الصبي يسبه وتعملان.

الطاقية علي رأسه مبرومة مخرمة كأذنه التي نامت عليها السيجارة . نحن حوله مشغوفون ، نتمني لو نكون بمهارته .

امرأة قدمت بين يديها حصير ، نفضته ، نزلت بقايا الجبن جافة، قالت ستذهب إلي عملها . يكون قد انتهي منها . قال «حاضر» «علي عيني» وأشار بأصبعه علي عينيه .

ثرثر كثيرا مع الخالة ، قال «زوجتي لا تنفع بمليم .. إنها لا تجيد غير الأكل» ودعا الله أن يتوب عليه من هذه الصنعة ، وتمني لو سافر إلي البلاد البعيدة ، حيث الأعمال كثيرة ومحترمة . فك الخيوط ، وجمع أشياءه ، مدت له الخالة يدها بالأرغفة عليها الجبن ، شكرها ، حصل علي القروش من النسوة صاحبات الحصر، وذهب .

ظل أحدنا أن نتبعه حيث يجلس في مكان آخر ، رفضنا ، ومكثنا علي الجسر نقذف الماء الراكد بالحجارة .

●

قال المعداوى : إن العمدة ادخلنى فى سين وجيم لأحدد له الموقع ، ثم اتهمنى بالتعجل .

- أى موقع يا معداوى ؟

- المكان الذى عثرنا فيه على الولد .

- عثرنا .. نحن لم نعثر على شئ . أمامك الحاج عبدالله اسأله .

- أى ولد ؟ سأل عوض .

- ألم تذهب إلى داركم بعد ؟

- جئت من طريق الكفر .

- والدك يا سيدى عثر على عيل صغير .

- وأين هذا العيل ؟

- بالداخل مع العكاوى .

- وبعدها يا معداوى ألم يبلغ الاشارة ؟

- العمدة رأيه إن الولد وجد فى زمام المركز ، وعلى الحاج التبليغ هناك .

- يعنى خرج من الحكاية كالشعرة من العجين .

- وأنت يا ولداه لم تنل غير المشوار .

- قلبك عليه يا شيخ زرارة .

هكذا علق عبدالكريم ساخرا ، فنفض الشيخ نفسه من الجماعة وهو يرغى ويزبد بكلام مكتوم ، ولكنهم ضحكوا جميعا حين وجدوا أن المعداوى لا يطيق الوقوف معهم ، ولحق بالشيخ فى ذلة .

وعلق عبدالكريم مرة أخرى : يخليكم لبعض .

وعلق عوض مستهزئا : هذا تابع التابع .

- أحباب والدك يا سيدى .

- أكلوا بعقله حلاوة .

- مادائم غير وجهه ، والبركة فيك .

ثم نادى عبدالكريم على ولده .

- هات حصيرة يا سعد .

- ماذا يفعل العكاوى بالولد فى الداخل ؟

- وجدنا حروفا غير مفهومة على بطنه ، أفتى أحدهم إنها مكتوبة بالإنجليزية قلنا ربما يقرأها محمد .

- وهل قرأها ؟

- أبدا .. قال إنها مكتوبة بالسريانى .

- سريانى !!

- ثم أفتى الشيخ إنها كتابة الجن .

- هات الولد لسيدك عوض ياعكاوى .

صدّر العكاوى بطن الولد أمام عينى عوض ، ومال يقلب فى الحروف المبهمة.

- حاسب على وشك الولد يخربشك .

- يخربش وهو فى هذه السن !

- عملها فى محمد .

- وزحف من صالة داركم إلى حجر أبيك .

- قل كلاما غير ..

ودفعه الولد بقدميه ، فانظلمت الدنيا فجأة ، أخرج المنديل من جيبه ، ومسح به

حول عينيه ، ونظر إلى الولد بعداء ، فواجهه بنفس النظرة ، فوجفت قلوب الرجال الملتفين حولهما .

– خذ الولد إلى دار الحاج يا عكاوى .

– ربما يكون جائعا ويريد الرضاعة .

– هذا ولد غير عادى .

– هل قرأت شيئا من المكتوب ؟

– لمحت كلمة تعنى «كل» بالانجليزية .

– سيأكلنا فى بطنه إذا كتبت له الحياة بيننا .

– «كل» لا تعنى الطعام ، تعنى الجميع .

– سيأكل الجميع فى بطنه .

– مسألة شرحها يطول ، وربما لا تكون الكلمة كما قرأتها .

وعاد عبد الكريم يأمر ولده : خليهم يعملوا «شاى» يا سعد .

– حاضر .

– لا وقت للشاى ، زمان الحاج أخذ خبرا بحضورى .

– لماذا يغضب أبوك من وجودك معنا ؟

– نحن نعتبرك واحدا منا .

– أنا لا أفرق بينك وبين سعد ولا عبدالعليم ولا على .. كلكم معزة واحدة .

– كتر ألف خيرك .

– أنت تربيت بيننا .

– ولم تخرج الغلطة من فمك .

– وإذا كان الحاج يشكو من قلة الرجالة اعتبرنا إخوتك .

– طبعا الجيرة ، والعشرة .

– ولا تحمل هما أبدا ، وبعد عمر طويل لوالدك .

– ربنا يعطيه طولة العمر .

– طبعا .. ولكن الأعمار بيد الله .

– قدم الصينية أمام سى عوض .

– قلت لا ضرورة للشاى .

– الظاهر عملوه من الأول .. تفضل .

– أنت لست غريبا ، وعلى يدك الحاج ظلمنا دون الخلق جميعا .

– سنعوضها إن شاء الله .

– الله ينور عليك .. يا ذوق .

– متى نراك وأنت مالك لهذه الأرض وحدك .

– لست وحدى .

– يعنى .. لم يعرق فيها غيرك .

– الآخر ابن مدارس .

– وشرع الله .

– حد يقول شيئا فى شرع الله .

– أنت تزرع وهو يأخذ ما قسمه الله بعد أن تخرج عرقك .

– أنتم يا جماعة تتحدثون فى أمور سابقة لأوانها .

– والله لو رأيت الحاج وهو مغمى عليه اليوم .

– كيف ؟

– حين فوجئ بالولد يأتيه زاحفا من الداخل ليتسلق حجره .

– لابد وأن أذهب إليه فى الحال .

– لا تخش عليه فامرأة العرباوى ترعاه .

– يبدو أنها عادت إلى داركم .

– فتحية ؟

– أى نعم .

– هل طردها سليم مرة أخرى ؟

– ويسكن قعدتها تطول معكم .

– والله الحاج قلبه طيب .. عن إذنكم لاطمئن عليه .

– وعليها .

– ماذا تقصد يا على ؟

ولكزه أبوه فى جنبه .

– أنت يا ابن الصرمة لسانك متبرى منك .

ثم رفع البلغة المركونة جنب الحصير .

– والله لأناولك على بوزك .. تفضل أنت يا سى عوض .

– أقصد إنه يطمئن على امرأة جاره .

– طبعا ابن أصول وصاحب واجب .. تفضل أنت .

وصعد عوض نحو مدار الساقية ، وهو يلم أطراف جلبابه .

وقبل أن يعتدل على الجسر ألقى نظرة حذرة على الرجال ، فرأى عبدالكريم وهو يحدف الطوف فى ظهر ولده الذى فارقهم إلى داره .

●

انسحب الظل عن دار الحاج عبدالله ، وانكشفت الواجهة لشمس مخنوقة ، كانت تركن هناك حمراء ثقيلة على حافة الغيطان بامتداد الشط الآخر من ترعة الميرية . والصفصافة أهدلت شعورها وظلها الخفيف على ركن من الجدار ، استند عليه الحاج بظهره ، ينعى للجالسين أمامه هذا الزمن ، وهم من حوله يمصمصون شفاههم ، ويهزون رؤوسهم مشاركة منهم فى الحديث . كانوا ثلاثة : المعداوى والشيخ زرارة والعكاوى ، الذى أمسك بعصا الشيخ ليرسم بها على التراب خطوطا عشوائية . قال الحاج : طب زمان وقلنا النكسة ، ولما انتشرت وحدات الجيش فى المدن وجاء بعضها إلى الجزيرة ، كانوا يعثرون على الولد سابحا فى ماء النهر ، تراه يا ولداه وقد ازرق بدنه ملفوفاً فى هدمة قديمة حين يكشفونها يجدون الكتابة بالقلم الجاف «مع تحيات القوات المسلحة» .

– الله يلعنهم .

ومسح الشيخ زرارة بصقة لم تخرج من فمه .

– بعدها حصلت الهجرة ، وجاءنا ناس من مدن القناة بعد أن دمرها اليهود ، عاشوا بيننا ، أجرنا لهم البيوت ، وشاركونا اللقمة ، وضاعفوا علينا الاسعار . كنا ننظر إلى نسائهم بتعجب فقد رأيناهن يأتين بعادات لم نألفها ، يتقصعن فى مشيتهن ، ويضعن الأحمر والأخضر على وجوههن ، وخفنا على أبنائنا منهن ، وما حسبناه ، حدث رغم أنوفنا ، فعثرنا على الأولاد فى السلال ، عينى عينك . وكنا نجد الكتابة مرة أخرى ، والعجيب أننا وجدنا أكثر من ولد مكتوب على بطنه «أنا ابن المهاجرين» .

كاد المعداوى أن يبتسم ، ولكن نظرة صارمة من الشيخ جعلته يقلب سحنته فى الحال . وقال الشيخ بغضب : هذا افتراء على الله .

وأراد العكاوى أن يترك ما بيده ليسأله عن شئ عن له غير أنه لمح عوض ينعطف نحوهم . فقال : سى عوض وصل . فأدار الحاج وجهه بعيدا ، ونطر يده بسخط : سبع البرومبة . ورد المعداوى والشيخ السلام ، أما الحاج فسأله مباشرة :

– ما الذى أتى بك ؟

– ألف سلامة على صحتك أولا .

– لا دخل لك بصحتى .. لماذا لحقت بى ؟

وهجس فى نفسه «تراهما على اتفاق .. هذه الفاجرة!»

– موضوع عائلى سأخبرك به فيما بعد .

– هؤلاء ، ليسوا أغرابا .

– نستأذن يا حاج .

– اقعد يا شيخ لنكمل حكايتنا .

– يقولون إنك عثرت على ولد .

– ادخل فهو معها هناك .

واتجه بكلامه إلى الرجال .

– إذا كان هذا قد حدث بسبب الحروب . لماذا تعاد الكرة فنعثر على أولاد مكتوب على بطونها رسائل غامضة .

– هو مجرد ولد واحد يا حاج .

– وما أدراك .

– يمكن حكاية السفر للخارج .

– لا .. النسوان شاعت ، والرجال عيونها فارغة .

– قلة الدين يا حاج .

– عندك عيلة (أبو سعدة) الرجل وأولاده تفرقوا فى بلاد الخلق ما بين العراق وليبيا والسعودية . زوجته وزوجات ابنائه ، كلهن أغلقن الدار ، وعدن إلى أهاليهن .

– الحقيقة لم نسمع عنهن إلا كل خير .

– ونعم النسوان يا حاج .

عبر عوض العتبة إلى عتمة الردهة ، ظل لفترة يحدق فى المكان حتى عثر عليها فى الحجرة الأولى ، تنام إلى جوار الولد الذى أسلمته ثديها ، فالتقطه براحتيه ليمزمز فيه على مهل وكانت كلما ضربته خفيفا على ظهره تجشأ ، ثم عاود الإمساك به بكلتا يديه .

حين لمحت عوض سحبت نفسها بلهفة وبدأت تلملم صدرها وتبحث عن منديل رأسها الذى سقط عنها ، التفتت إلى ولديها القابعين حول الطعام الذى تركه لهما الحاج ، ثم نظرت بوله إلى عوض .

– إزيك يا فتحية .

– بخير طول ما أنت بخير .

– عاوزك فى كلمة .

فأدار الرضيع وجهه العرقان نحو الباب ، وتوارى عوض في ناحية حتى لا يقع بصره عليه .

مال عوض على أذنها قبل أن تهبط عن عتبة الحجرة .

– انتظرينى .. سأمر عليك الليلة .

– بلاش يا سى عوض العين حاطة علينا .

– أريدك فى موضوع مهم .

– خليها يوم تانى .

– سأمر عليك الليلة ولو صورت فيها قتيلا .

– أبوك يحس بالموضوع ويطردنى .

– لن يطرد أحدا بعد اليوم .

– وجاءهم الزعيق من الخارج ..

– هذا صوت اسماعيل الفار .

خرج عوض ليراه واقفا على الجسر يصيح جهة الرجال الجالسين أمام الدار ، والحاج يحاول تهدئته فلا يستجيب .

– قرب يا اسماعيل نتفاهم .

– اتفاهم مع رجل ضلالى .

– أنا ضلالى يا وسخ .

– تعال لم امرأتك أو اعلمها الأدب .

– هى ستك وتاج راسك .

– لازم تكون محترمة وتلم لسانها .

وتدخل المعداوى .

– أمك قبيحة يا اسماعيل .

– خل الطابق مستورا ..

– أى طابق يا رمة .

– أنت السبب يا معداوى .

وركن الشيخ على عصاه ليمد طوله .

– وما دخله فى الموضوع يا فار .

– ربنا اعلم .. تعال لم امرأتك لا تجعلنا نتحدث أمام الأغراب .

فانتفض الحاج للكلمة .

– أما أنك رجل قليل الأصل .

فاسكت عوض والده ، واتجه نحو اسماعيل .

– بعد هذه العشرة تقول أغراب يا عم اسماعيل .

– عمى الدببة منك له .. رح يا شيخ أنت والمعداوى .. اسكتوا هذا الرجل .

سار اسماعيل امامهما على الجسر ، وكان صوته يخفت كلما دنا من داره .

وعاد عوض نحو أبيه الجالس الآن وحيدا ، فقد قام العكاوى إلى الداخل ، يبحث له عن لقمة ، قبل أن يأتى أبناء فتحية على وجبة الحاج . ووقعت عينا عوض على هذا الجسد الملفوف فى السواد ، يميل برأسه نحو الجرن ثم يعود إلى الوراء.

«من هذا الذى يرقبنا من بعيد ولا يريد الاقتراب» .

حين وصل باب المنحل أخفى جسمه فى فتحة الباب ، ثم ألقى نظرة مباغتة ، ولم تستطع مسعدة الإرتداد ، فتصلبت فى وقفتها وأشارت إليه بيدها .

«مسعدة !! لماذا تقف هكذا ؟ ما الذى تبحث عنه ؟ ولماذا لم تأت مباشرة إلى الدار ؟ إنها على غير عادتها» .

صار الوجه فى الوجه ، فبهت عوض حين وقع نظره على ملامح مطموسة لوجه جميل «أين كحلتها ورموش عينيها الدباحة ؟» «أين بسمتها وبهجة روحها المفردة ؟ إنها بقايا مسعدة .. أو ربما امرأة تشبهها .. أو تراها مجرد شبح يتنكر» .

ولكنه تأكد حين سمع النداء .

– ممكن كلمة يا سى عوض .

– عينى .

وتقدم منها حتى شم أنفه دسامة الضأن المنبعثة من ثيابها .

– ما أخبار سى ناصر ؟

– منه لله .

– لم ؟

– هو من دفعنى لهذه الزيارة غير المتوقعة فقد جئت لأشكوه للحاج .

– خير إن شاء الله .

ويدأ البدن الناحل يرتجف تحت الجلباب المربوط بحزام غير محكم .

– عدت من صلاة الفجر إلى دارى التى استكمل بناءها ، انتهيت من الدور الأول ، ولم انته بعد من الدور الثانى ، ثم إننا لم نصنع السلم بعد . فكلما احتجنا لشئ صعدنا على سلم نقالى .

بسلامته جمع صحبته الفاسدة وصعدوا ببنت لا أدرى من أى بلد هى ، ونسوا أنفسهم هناك . كانوا يتناوبونها طول الليل ، ولا يدرى أننى قد أمر على بيتى . بحثت عن السلم فلم أجده ، واستيقظ الجيران على صوتى . وأخيرا رأيت الأستاذ وهو يمدده من أعلى ليهبطوا جميعا على مرأى من الناس .

ازدادت رعشة البدن ، فلم تتمالك ، استندت بيدها على الحائط ، ومال بوجهها على الأرض ، وهيئ لعوض أنها تريد التقيؤ ، فأمسك بكتفها .

– عنك أنت .. أنا كويسة .

– ألف سلامة .. أنت عيانة ؟

– لا .. أنا تمام .

عادت بظهرها نحو الجدار الخلفى لدارها .

تتبعها عوض إلى حين ، وكان يردد بينه وبين نفسه «ما لها البنت ؟ إنها دائخة انها تفرفر كدجاجة مذبوحة .. مسكينة» .

وسمع نداء أبيه :

– ماذا تفعل عندك ؟

– اتبول .

– تتبول أم تنظر بحسرة إلى الأرض . بعينك .

– أى أرض ؟

– التى حرمتك منها .

– هى أرضى فى النهاية .

– عشم إبليس .

– يا حاج أنا ابنك .

– ابنى يا حرامى .. هيا جهز نفسك .

– سأبقى هنا .

– عاوز تلبد لها .

– ليس معى ركوبة .

– العكاوى يأتيك بحمارة المعداوى .

– ما تراه يا حاج .

– أم تريد التآمر مع عبدالكريم .. خليه ينفعك .

– يا حاج .. عيب .

– أكيد تريد الاختلاء بفتحية ، نفسك رمتك عليها الليلة .

– يا أبا .. عيب .

– ما عيب إلا العيب .. هذا الولد أتعرفه ؟

– وكيف أعرفه يا حاج ؟

– غريبة أن أعثر عليه صباحا وتلحق بنا فى نفس اليوم .

– جئت لأحكى لك بلوة ابنك .

– ناصر ؟ برقبتك .

– اسمع الأول .. الأستاذ يصاحب المومسات .

– قطع لسانك .

– اسأل جيرانى .. وقع فى شر أعماله حين عدت من صلاة الفجر .

– منذ متى وأنت تصلى ؟

وارتفع الصراخ من ناحية العرب ، فخرجت فتحية بالولد بين يديها ، وأولادها فى ذيلها مذعورين ، وظهر العكاوى وهو يلوك بقايا لقمة كبيرة فى فمه

– يا ساتر .

هرع عوض إلى الجسر ، ولحق به العكاوى يتقلقل فى حذائه ، أما الحاج فقد جرجر ساقيه وهو يستند على الحائط . أمسكت به فتحية فقال لها وهو ينتش ذراعه : اتركينى .

قدم أهل العزبة يثيرون الغبار من حولهم ، تسبقهم نساؤهم وهن يشلشلن بالطرح دون أن يعرفن سبب الصراخ بعد .

على الشط أمام دور العرب كانت تقف سلامة وسليمة وعالية يحفن التراب من تحت أقدامهن لينثرنه على رؤوسهن . حين سألهن عوض عن سبب نواحهن أشرن إلى الماء .

ورأى الجميع مسعدة وهى تشهق ، تمج الماء من فمها كلما برز وجهها على السطح ، وتصرخ : حريقة فى جسمى يا أمه .

ثم تغطس دون إرادة منها .

واندفع اسماعيل الفار إليها ، ولحق به على عبدالكريم وجر عوض العكاوى من يده : انزل واسحب معهما .

ثبت العكاوى قدميه بالأرض ممسكا بجذع السنطة .

– اتركنى يا سى عوض .

– انزل يا ولد .

– اتركنى لأجل النبى .

فانحنى عوض ليرفع ذيل الجلباب من أسفل فتشبث به العكاوى : أنا فى عرضك .

خلعه غصبا عنه فإذا هو عارى الجسد تماما ، التفت عن يمينه وعن شماله ، وهو يستر عورته بكفيه ، ثم طار فى الهواء فى قفزة بارعة جعلته فوق رأس مسعدة بالضبط . مدت له يدها ، فأفلتها ، ودار اسماعيل وعلى خلف ظهرها ، وأمسكاها من الذراعين ، ودفعها العكاوى أمامه حتى صعدوا بها إلى الشاطئ . وعاد العكاوى بسرعة ليختفى فى الماء حتى جذعه .

مددوا مسعدة على الأرض تحت السنطة ، ورقد عوض على ركبتيه وكرر الضغط على صدرها فانبثق الماء من فمها فى دفعات . وزعق فى الجمع الذى تحلق حولهما : وسعوا للهواء . ودفعتهم سلامة فى صدورهم : على دوركم .. الفرجة خلصت .

لما ارتاح النفس ورفعت مسعدة جفنيها عن عينيها الزائغتين . ركعت أمها بالقرب من رأسها ، تملس عليه ، وتسوى ضفائرها المبلولة .

أما أهل العزبة فقد انشغلوا بالواقف مكانه فى الماء ، لا يريد أن يبارحه ، ظل منكس الوجه ، يوارى خجله ، فقام عوض عن جسد البنت ليضحك معهم ، وصاح فى العكاوى .

– عجبك الماء ؟

– خليهم يمشوا

– من يخاف على دمه يبعد .

– هم عندهم دم .

وأدخل رأسه فى الجلباب على عجل ، وعاد ليتسلق نعليه .

– خلى جزمتك هنا حتى نرفع مسعدة إلى دارها .

أمسك عوض جهة الكتفين ، ومال العكاوى على الساقين ، وسارت الجدة والأم كل واحدة من ناحية تلم جلبابها ، وتفرد الغطاء على الجسد الذى ينتفض ويقطر الماء على تراب الجسر ، بينما البنت تهذى : حريقة يا أمه .. حريقة فى جسمى .

وقبل الدخول بها من باب الدار شاهدوا زويعة التراب المقبلة من جهة الهدار فهتفت الجدة والأم فى صوت واحد : بسرعة قبل مجئ صبيح .

●

صوت مائى

جلسنا حلقة ، خططنا التراب ، وزعنا عليه الطوب ، تحت الشجرة الصغيرة النائمة فروعها على الترعة ، رأيناه جالسا بيده عمود طويل ينتهى – فى عمق الماء – بمصفاة ، بجانبه ورق مكور .

سكتنا ، ونظر لما أخرج المصفاة من الماء ، قربّه من عينه ، قلبّ ما فيه ، عرفنا أنه يخرج أشياء لا ترى ، يلفها فى الورق ، قال لنا الكبار : إنه يصيد البلهارسيا .

لم نهتم به ، وزعنا الطوب من جديد ، وضربنا أحدنا على كفه.

ألقى المصفاة فى الماء .

نهض ، وتمطى ، بال ثم أسند رأسه على الجذع . أشعل لفافة.

وزعنا الطوب فى الخانات ، الولد احتج على الضرب ، أفسد اللعبة بقدميه ، جرى ، أسرعنا خلفه ، تجمعنا عليه ، ضربناه ، بقبضاتنا على ظهره ، بكى ، عدنا للعبة .

المصفاة بيد الرجل ، يخرج الذى لا يرى .

جمع الورقات ، اتجه إلى المصلى ، اختفى بين جدرانها ، نام .

لم نهتم به ، يستيقظ بعد قليل ، ويذهب إلى بلده .

واصلنا لعبنا حتى جاءت أم الصبى تتوعدنا ، هرعنا متفرقين إلى دورنا .

لم يستطع الحاج الوقوف طويلا لمتابعة الغريقة ، أحس أن سيقانه تهتز ، وأن رأسه يلف به ، وبدأت المشاهد تتقلب أمامه فى دوامة لا قرار لها ، إذا نظر إلى الأفق البعيد يرى الأرض تدور بسرعة ، وتختلف مواضع الأشياء ، كما كان يرى الشجر وقد مد جذوعه إلى الفضاء ، وانغرست غصونه فى الأرض .

عاد بظهره ليفرد طوله على الحصير ، جعل رأسه إلى الوراء ، وأغمض عينيه حتى لا يرى دار عبدالكريم المواجهة إليه وهى تدنو بجدرانها نحوه ، فتضيق مساحة الجرن أمامه ، ولا يرى مدار الساقية وهو يلف دون أن تربط به دابة .

ردد أنفاسه بوهن ..

ماذا يحدث لى ؟ أهى النهاية ؟ لماذا تتبدل الأشياء أمام عينى ؟ هل اقتربت الساعة ؟ ها هى أرضى عن يمينى ، وهذا جرنى ، وساقيتى ودارى ، والبناء غير المكتمل لمسجدى . هل اتخذ قرارى باستكماله ؟ أم ادعه للأولاد يكملونه من بعدى؟ من منهم سيعتنى ؟

عوض الذى يرجو دنو ساعتى ليسيطر على كل شئ ، ثم يضيعه مرة واحدة غير مقدر للجهد الذى بذلته من أجل اكتمال الحلم ؟ أم ناصر هذا اللاهى المدلل . لا اهتمام له بشئون الأرض ، سيبيع دون أن يزرف دمعة واحدة .

أيام طويلة قضيتها على هذه الأرض التى يتربص لها الجميع ، ستؤول إلى

هؤلاء الأنجاس من سكان العزبة ، إنهم يضعون القرش على القرش بانتظار الساعة ، سيتمكنون منها . أكيد . إننى أراها وهى تفلت من بين يدى ، كله هباء ، هباء .

سكنت هذه الدار وأتيت بأسرتى لتكون رعايتى كاملة . ولكنهم جميعا لم يطيقوا المكوث بها ، قضوا العامين بطلوع الروح ، وعدنا إلى الجزيرة ، ولم أفلح فى إنجاز الحلم ، امتلاك العزبة بأرضها ودورها وناسها .

كانت للبشوات - قبل الثورة - سطوة لم نحز مثلها أبدا .

وفرغت الدار لرجالى ، هذا بدران الذى أتى بأسرته ، ودار حوله عوض ، ولم يتركه فى حاله ، لا يفلت فرصة إلا ويوسوس له عن سرقاته .

وانتهى الأمر بأن حام حول ابنته ، حملت منه ، فعجل هذا برحيله . واختفى فى البلاد ، ولم نسمع عنه بعدها .

وجاء رشاد ، هذا الفلاح البارع ، ليده سحر على الأرض ، كنت معجبا بزرعته التى يداوم عليها فى حقله الصغير ، قلت له : هذه دارك .. احضر أسرتك واجعل إقامتك فيها ، وكن كواحد من عائلتى .

ولم يتركه عوض فى حاله ، سمم النعاج ، وألقى التهمة عليه ، ودفع لرجال العزبة ليقلعوا الزرع ، ويسرقوا المحصول قبل جمعه . وأوغر صدرى تجاهه ، فاستغنيت عنه .

وراحت أيام ، وجاءت أيام ، وولى عصر الرجال المهرة المحبين للفلاحة ، وما دام على المذاود إلا شر البقر . أيأتى علىَّ الحين الذى احتاج فيه لفتحية وللعكاوى !!

هذه علامة النهاية .

- آبا .. أتكلم نفسك ؟

- طلعت الغريقة يا شهم .

- طول عمرى أسد فى المواقف الصعبة .

- لم تكمل لى ما فعله أخوك .

- فضيحة فى السكن الجديد قبل أن انتقل إليه .

- فضيحة وأنت سيد الفضائح .

- أكلمك عنه فتقلب الموضوع علىَّ ، لو أنك دفعت للمقاول لينهى البيت ما كان حدث ..

- ماذا حدث ؟

- كل ليلة يلم صحبته ويسهر فى الدور الثانى مستغلا عدم اكتمال السلم ، يطلعوا فوق ، ويسحبوا السلم الخشب ، فتنقطع صلتهم بالدنيا ، ويهيصوا كما يريدون .

- شباب وفرحان بنفسه ، وأنت عملت أكثر من هذا .

- لكن لا تصل لحد جرجرة المومسات عينى عينك .

- وصلت لمومسات !

- أقول لك اسأل الجيران .. ربنا ما يفضح لك ولية .

- قلبك على الولايا .

- قلبى على أخى .

- بأى أمارة ؟ ولو قلبنا فى دفاترك القديمة ، والجديدة .

- خلاص يا حاج .

- خلاص .. هل نسيت بنت بدران ؟

- خلاص يا آبا .

- وصاحبتك التى تنتظرك بالداخل .

– ليس لى أصحاب .

– أتظن أنى نائم على أذنى ؟ أقطع ذراعى إن لم تكن واعدتها الليلة .

– انهى لى البيت كى استقر .

– ما دخل البيت فى الموضوع .. يا عكاوى .

ولم يسمع الحاج إجابة لندائه ، فسعى عوض للبحث عنه في الداخل .

– كان معك على الجسر .

ثم جاء وهو يدارى خجله ، يحتك بالحائط ، ويضبط مشيته فوق الحذاء المفتوح .

– مازلت خجلا يا ولد ؟

– لم يكن من الواجب أن تعرى جسدى أمام الحريم .

– أتظنهم استمتعوا بمشاهدة جمالك ؟

– كان ممكن انزل بالجلابية .

وأمره الحاج بالذهاب إلى المعداوى .

– قل له هات حمارتك للحاج عبدالله .

– حاضر .

– يا فتحية .

وخرجت إليه تلملم الولد بين ذراعيها .

– أظنه خلص عليك .

– مفجوع يا حاج .

– العكاوى سيبيت معك الليلة .. دعيه ينام فى مخزن التبن . وخلى بالك من نفسك ، أنت أمانة فى رقبتى حتى نرى حلا مع العرباوى .

وقف عوض مطأطىء الرأس ، لا ينظر إليها ، كان إحساسه بعينى أبيه قويا ، ولم يرد منحه الفرصة لكشف سره .

– والولد يا حاج .

– سنأخذه معنا لنبلغ المركز .

– المفروض الكفر يتولى الموضوع .

– العمدة رفض يا عوض ، قال إنى وجدته فى زمام الجزيرة .

– رجل واطى .

– أعطِ الولد لعوض وهات الحمارة من الزريبة .

عاد العكاوى ساحبا حمارة المعداوى من رقبتها . كانت تسير ببطء ، ولا تريد الدخول ناحية الدار .

– امشى يا مكلوبة .

ودفعها من كفلها ، فانفلت حذاؤه ، وطار بعيدا ، وكاد يصدم وجه الحاج .

– ستبيت هنا الليلة ، والصبح نتصرف .

– حاضر يا حاج .. والعشاء ؟

– اشتر عشاء لك ولفتحية من الكفر .

– ربنا يطول عمرك .

وقفت فتحية بالحمارة أمام الباب ، والولد لم يكف عن التملص من ذراعيها ، كان يريد الانفلات منها ، غير أنها أمسكت به عنوة ، واستند الحاج على العكاوى حتى تمكن من ظهر الحمارة ، وامتطى عوض الحمارة الأخرى ، رفعت فتحية الولد إليه ، فغمز لها بعينيه ، وارت وجهها بعيدا ، وأرادت أن تقول كلمة ، لكن الحاج عاجلها .

– ادخلى الدار واقفلى على نفسك بالترباس .

وضرب الحاج ساقه فى جنب الحمارة ، فانطلقت جهة الجسر ، وسارت الحمارة الأخرى وراءها متلكئة ، وحين خرجت إلى أول الطريق ، مالت برأسها جهة دور العزبة ، فضربها عوض لتسير ناحية دور العرب ، وقبل أن يخفيه حائط الدار ، أشار إلى فتحية التى وقفت صامتة ، محصورة بالكلمة التى لم تقلها .



صوت المغرب

تنتــهى الدور عنــد شـجرة الكافور العـاليـة ، يمتـد ظلهـا على المصلى ، تحت المصـلى ماء الترعة الرائق ، الأحجار هابطة حتى العـمق ، نزل عليـها بيــده دلو، طــرف الجلبـاب ملموم ومربوط على البطن .

الدراجة نـائـمة عـلى جـدار المصلى ، على المقعد الخلفى نعل ومنجلة . خـرج ثقـيـلا مـائلا نحـو الدلو ، يتنـاثر منـه الماء خطا متعرجا من الشاطئ حتى امتداد الجسر .

فى المكــان - خــارج الظـلة - تشـربت الأرض المــاء بعـطش، وتــناثر الغبار .

تكومنا على قش المصلى .

هبط أحدنا السلم الحجرى رافعا جلبابه ، لا شئ تحته .

زجره الرجل : دعنا نشوف أشغالنا .

رحــنا ننظره ما بــين التــرعة والجسر الـذى رقـد ترابه تحـت رشــاش المـاء .

قـال صـبى : يظل يرفع المـاء من هنا حـتى المصلى البـعيـدة ، بعدها يكون الهدار، وهو الـذى يتـحكم فــى مـائه ، يغتسل ، ويذهب إلى بلده ، يأتى فى الأسبوع مرة .

أضاف آخر : يأتى فى مواسم الحصاد يجمع القمح والأرز من آبائنا .

واختلفنا ؛ إذ رأى أحدنا أن هذا الرجل لا دخل له ، بالتحكم فى الماء.

ركن الدلو فارغا ، جلس على الحائط ، اخرج علبة مستطيلة صدئة عليها كتابة بخطوط صغيرة ، بالعلبة ورق رقيق وتبغ ، لف الورقة بالتبغ ، مرر عليها طرف لسانه ، تفل ، أشعل فى طرفها الثقاب ، الدخان غطى وجهه ، هدأت أنفاسنا التى تعلقت بالمشهد، شد شهيقا قويا من أنفه ، وقذف بلغما أزرق ، تناول مقود الدراجة، سارت بجانبه طائعة ، على كتف جلبابه الأبيض ، وصل ظل شجرة التوت المتشابكة بالسنطة .

هناك ركن الدراجة ، نزل بالدلو ، بينما مكثنا نتناوب عقب السيجارة باشتهاء .

وحين تكاثرت الماشية على الجسر بغبارها الكثيف الصاعد إلى السماء ممتزجا بدخان الكوانين فى الدور ورائحة الطعام ، كان الآباء قد عادوا من الحقول ، وافترشوا الردهات ، فتجمعنا على العشاء الساخن .

بعدها وقف الليل - هناك - عند المصلى ، وخلف دورنا ، وعلى الطرف الآخر من الترعة .

تكومنا عند الباب على الضوء الأصفر للفتيلة ، وحكى كل منا حكاية عن العفريت الراقد فى بئر الساقية ، والمارد الذى يحرس الجبانة ، ويقطر الطريق .

داست الحمارتان بقعة الأرض المبلولة ، كانت على هيئة جسد مسعدة حين مددوها عليها ، الحاج فى المقدمة ، تهرول حمارته فرحة بالعودة ، ووراءه تسير حمارة المعداوى متململة ، ودون رغبة حقيقية ، وقع نظر عوض على غنمات صبيح النائمة فى الساحة ما بين الجسر والدار ، ورآه على الحصير بين أمه وزوجته يوارى وجهه حتى لا يتلقى التحية .

- سلام عليكم .. لماذا لا تبيت الغنم فى زريبتنا ؟

والتفت الحاج جهة صبيح .

- هل عاد صبيح ؟

- ها هو أمامك .

- هل ستستغنى عن الزريبة يا جدع .

- بلا زريبة .. بلا هم .

وضرب الحاج عنق الحمارة ليدنو منه .

- حد زعلك ؟

- أنا زعلان من نفسى ، ومن الخلق كلها .

- وما ذنب الغنم ، هل ستبيت جنبها الليلة ؟

- لم يعد لنا عيش فى هذه المخروبة .

- وأرضك .. وزرعك ؟

- سأبيعها حتى تستريحوا .

– أنا لا أشترى ، ولا أبيع .. سلام .

تركه على حصيره لا يجرؤ على رفع رأسه تجاهه .

وأسرعت الحمارة من خطوها ، واستمر عوض فى ضرب ركوبته فى جنبيها ليلحق بأبيه ، والولد لم يكف عن التملص بين ذراعيه ، وإن لم يفلته أبدا ، ظل قابضا عليه حتى كاد يختنق ، وتذكر هذه الكتابة ، فكشف الخلقات التى تلف بدنه، ليتأمل باقى الكلمات التى لم يستطع قراءتها فى دار عبدالكريم ، كلمة واحدة بالانجليزية ، وباقى الكلمات أجنبية غامضة ، قلب الولد جهة اليمين وجهة الشمال ، وأدار ظهره نحو ناظريه ، لا شئ هناك ، مجرد كلمات متناثرة .

كان الحاج يحادثه على ظن أنه يسير إلى جواره ، حين انتبه إلى تأخره ، صاح فيه بغضب : ماذا تفعل عندك ؟

– أحاول قراءة المكتوب على بطن الولد .

– وقرأت ؟

– هى كلمة انجليزية واحدة ، والباقى على ما أظن بالفرنسية والألمانيا واليابانية و .....

– هذا ولد الأمم المتحدة .

– أو معمول له عمل .

– وكيف عرفت أنت بهذه اللغات ؟

– أنا لا أعرفها .

– ولم تفتى إذن ؟

– قلت أظن .

– إن بعض الظن إثم .

– وهذه جملة باهتة باللغة العربية .

– يعنى وصلت لحل .

– لم أتوصل لمعناها بعد .

– عال .. حتى العربى نسيته .

– مكتوبة بلهجة غير مصرية .

وانقلبت على وجهيهما عفرة الطريق ، خرج عليهما فجأة سليم العرباوى ، يسوق أمامه مراحا من النعاج الشبعى . كانت تسرع فى مشيها مستعجلة الوصول إلى حظيرتها ، وسليم وراء ها يحاول ضبط خطوها ، يسحب ساقا متألة، التوت تحته ، وسمع لعظامها فرقعة تؤلة جدا ، ولهذا كان يميل ببدنه على ناحية ليمكن يده منها ، وتعاونه فى رفع الساق قليلا عن الأرض ، وباليد الأخرى يستند على عكاز معقوف .

– موعود أنا بك لأطالع وجهك صبحا ومساء .

تطلع العرباوى إلى الحاج وهو يكظم ألما مبرحا ، يعض على نواجزه دون أن يخرج صوتا ، فسأله عوض : مالك يا سليم ؟

– كما ترى .

– يا ليتها انكسرت .

– الرحمة يا حاج .

– هذا جزاء المرأة التى طردتها فجرا .

وانشغل العرباوى بالنداء على النعاج ، وفارق الحاج متجها إلى العزبة ، دون أن يعره انتباها .

– رح لعالية لتدلكها لك .

– حرام يا حاج الرجل لا يستطيع المشى .

– شاطر فقط فى النط .

فابتسم عوض ، ونظر إلى ظهر العرباوى منتظرا رد فعله ، غير أنه سار فى طريقه غير عابئ بما سمع ، وكانت النعاج قد تفرقت وصارت فرادى ، والكبش ظل وحيدا لا يريد الإسراع محتفظا بمشيته الوقور ، شامخا بقرنيه ، ينظر من عليائه إلى ما حوله فهو رب هذه القطيع .

وأوقف الحاج الحمار ليقول له : اسمع .. فتحية فى دارى ، هى فى حمايتى .. إياك ..

وقاطعه عوض : هو الرجل فيه حيل يا حاج .

رمى العرباوى يده الممسكة بالعكاز ، فطار منه ، وكاد يسقط على وجهه ، ثم تماسك حتى استطاع استعادته من الأرض . وكادت ابتسامة عوض أن تستحيل إلى قهقهة عالية .

– يعنى لو بعثنا بالولد إلى شيخ يستطيع فك الحروف ؟

– أقول لك لغات أجنبية .

– أيام الإنجليز كنا نجد لقطاء بالقرب من (الكامب) مكتوبا على بطونها «تحيا الأسد البريطانى» .

– يعنى المسألة قديمة .

– قلت لك ظهرت على فترات ، أيام النكسة ، وأثناء الهجرة .

– لم تقل لى شيئا .

– المهم قلت وخلاص .

– وما الغرض من هذا ؟

– قل ومانذنب هؤلاء الأطفال ؟

– هذه رسائل يا حاج .

– من يرسلها .. وإلى من ؟

– الله أعلم .

اقتربا من انحناءة الهدار . ها هنا تنتهى ترعة الميرية لتدفق ماءها الزائد فى المصرف الذى يسير مع خط القطار ، يبدأ من الجزيرة ويستمر مع الشريط إلى نهايته ، سيميلان مع الطريق ليصير موقع الشمس الغاربة إلى يمينيهما ، اختفى قرصها ليترك فى الأفق بقعا دموية متفجرة ، تسقط على خضرة الحقول . القرص المختفى هو بؤرة الكون التى تتسع فى دائرة مهولة ، والسحاب كلما بعد عنها ازداد ارتفاعا وقتامة ، والسكون يشمل كل شئ ، السواقى الغافية ، والحظائر التى خلت من دوابها . صمت جليل تقطعه من حين لآخر زقزقة عصفور ، أو دعاء كروان ، يحلق فى الغبشة بحثا عن ركن يقضى فيه ليلته .

وحشرات الأرض بدأت الزحف من مكانها لتسعى ما بين ماء الترعة وحافة الزرع ، و(الهاموش) الخفيف بدأ يحلق حول رؤوس الراكبين ، يدوم فى حلقات تسير معهما بدأب ، والحاح .

قبل الوصول إلى كتلة الهدار الخرسانية التى تصد تيار الماء فى رحلته النهائية ، وقف العربى ليسحب جاموسته من الترعة. هذه عادتها فى الغدو والرواح، تختار هذا المكان بالذات ، لتنهل منه شربة الصباح ، وجرعة المساء ، على أن تختم نهلها بغطس يبرد حرارة جسدها .

كان العربى يشد الحبل وهو يحادث سعد بن عبدالكريم ، وحين اقترب الراكبان توقف العربى عن الكلام فجأة ، وأشار برأسه .

– ولد يا عربى .

– نعم يا حاج .

– لم أعد اتفاءل بوجهك .

– لِمَ يا حاج ؟

- اصطبحت بك اليوم فعثرنا على هذه المصيبة .

- هذا من كرم الله ، فهو سينعم بخيرك .

- وأنت يا سعد إلى أين العزم ؟

- مشوار بسيط للغيط .

- الناس تروح دورها وأنت ..

- أنت عارف أنا لا أزرع غير الخضار ، لازم اطمئن .

- وهل الناس ناقصة خضارك ؟

- الأمر لا يسلم يا حاج .

- سلام عليكم يا عم سعد .

ودعه العربى ثم سار إلى جوارهما ساحباً جاموسته . وترك سعد يسير على مهل حتى وصل إلى السور الحجرى للهدار فجلس عليه .

- ستتابع غيطك من عندك ؟

- تفضلوا أنتم .. براحتكم .

ظل عوض صامتاً يتابع حوار الحاج مع العربى ، فقد أعاد الحكاية منذ أن سمع صراخ الولد فى حقل البرسيم ، وما جرى له مع أهل العزبة وإلحاح الحاج على السؤال عمن تكون أم هذا الولد؟ والعربى يجيب بزهق : الله اعلم يا حاج .

- قلت لك تعال لتعمل عندى .

- سبق وعمل عندك ياحاج ، وطردته .

- أنا طردته !!

- ألا تذكر ؟

- ولماذا طردتك يا ولد .

نظر فى عينى عوض فتشاغل عنه ، ونكس رأسه إلى الأرض ، أراد أن يتأخر عنهما قليلاً ليسير على خطو جاموسته ولكن الحاج ظل يلاحقه .

- أنا طردتك يا عربى ؟

- خلاص يا حاج .. هذه حكاية قديمة .

- ما السبب ؟ أنا لا اذكر .

- إن الله حليم ستار .

- آ .. أهو أنت يا ابن الخاسرة .

وتراجع العربى إلى الوراء ، يود لو يتوارى عن الرجلين ، وعوض أراد أن يهون عليه الأمر فقال : ولا يهمك .

- أنا لم أفعل شيئاً .

- لا أنت أولهم ولا آخرهم .

ووقع نظر عوض على شبح بعيد ، يهبط من الطريق إلى الماسورة التى تعبر المصرف لتنقل ماء الساقية إلى أرض السكة الحديد «هذا جسد امرأة متخفية تلف وجهها بطرحة سوداء ...»

كانت توازن جسدها فوق الماسورة الأسطوانية خشية السقوط فى الماء الأخضر الراكد .

- من هذه يا عربى ؟

- من ؟

- هذه المرأة التى تعبر المصرف .

- لا أعرفها .

- امرأة . وتعبر المصرف فى هذه الساعة !

- يمكن غريبة .

- والغريبة تذهب إلى غيط سعد فى هذه الساعة يا بجم .

- تاجرة خضار جاء ت لتشترى منه .

– قل لها إنه هناك عند الهدار .

– وما دخلي أنا يا حاج .

– أنت تقول إنها تاجرة ، فأنت تعرفها .

كانت المرأة تخطو بين الزرع مع ارتفاع الأرض التى ينهض عليها خط القطار، ولأن هذه الأرض يتوزع عليها الشوك وحصوات الزلط الداكنة ، فقد تلاشى سواد المرأة ، ولم يعد الحاج يرى شيئاً . أما عوض فكان يلاحق حركتها حتى شاهدها تدخل الخص ، فأدار ظهره ليتابع سعد الجالس على السور الحجرى ، فأخفاه جذع الشجرة الملتفة حول الهدار .

– كلكم نجاسة .

– لا تجمع يا حاج .

– أقصد أهل العزبة جميعاً .

– أنا لست من العزبة .

– أنت أكثر منهم نجاسة ، تذكرت فعلتك ، ولن أطالبك بالعمل عندى .

– وأنا لا أريد .

– البركة فى العكاوى .

– ونعم الرجال .

اختلط الأمر على عوض . هذا الصراخ كيف يخرج من الولد النائم بذراعيه؟ إنه صامت تماماً ، هدهده خطو الحمارة ، وأرهقه جهد اليوم الطويل فغفى ، وارتاح هو لغفوته ، فكم همّد ذراعيه من دوام الحركة والتقلب ، كما ارتاح من نظرة عينيه المحملقتين الثابتتين . إنها نظرة لا تنتمى لطفل فى عمره ، فيها عتب على الدنيا كلها ، وفيها لوم ، وتوعد ، وتهديد . كان يبادله النظرة ، فلا يستطيع المداومة . إنها نظرة إدانة ، خالية من البراءة ، والتطفل الصبيانى

والرغبة فى الاكتشاف . إن فى عمق نظرته اكتمالاً ، ومعرفة شاملة بالدنيا ، كأنه جاء هكذا كاملاً ، لا ينقصه الوعى والإدراك . «فهل ألهم فى بطن أمه بخبرات نهائية ؟ أم أنى اتوهم هذا؟ فهو – إذا تأملت جسده – مجرد جسد رضيع لم يكمل أياماً معدودات . الجسد لا علاقة له بنظرة عينيه ، والعين هى حاملة الملامح الحقيقية للإنسان . ترى أهى عينى التى ترى ذلك فيه ؟ كأنما اقرأ نفسى، لا أرى حدود الواقع ، كيف وقد شاهدوه يغادر حضن فتحية ليحبو خارجاً من الدار حيث يقتعد حجر الحاج .

وحين رأيته – أول مرة – مد يده ليخمش وجهى بعنف . من هو هذا الطفل ؟ وما سر هذه الكتابة ؟ إن الكتابة فى حد ذاتها تضفى على ما أراه فى عينيه لغزاً.

ثم هذا الصراخ الذى أسمعه . كيف ينطلق منه وهو نائم ؟ إنه مستغرق تماماً . وعيناه منذ أغمضهما أعادتا لى حالته الطفلية الساذجة . إنه كائن غامض ، ولن ارتاح حتى أفك طلسمه .

– اسكته يا عوض .

– إنه نائم .

– الصوت من هنا يا حاج .

– من أين ؟

– من نفس المكان الذى وجدنا فيه الولد صباحاً .

ضغط الحاج على جانبى الحمارة ، فتوقفت ، وعلى إثرها جمدت حمارة المعداوى ، وأرادت أن تلف برأسها جهة العزبة .

– انزل بص يا عربى .

– موعود أنا .

– الصوت طالع من البرسيم .

تناول عوض حبل الجاموسة ، فتلهفت إلى الأطراف الخضراء الريانة خشى عوض السقوط ، فشدها بقوة ، وهو يدفس قدميه فى بطن الحمارة والجاموسة مدت لسانها على آخره ، تلوى عيدان البرسيم بنهم .

– ألم تاكلى فى يومك ؟

– دائماً مفجوعة .

– وجدت حاجة عندك

– يا دين النبى .

– عيل ؟

– الظاهر توأمه .

– توأم؟

– فوله وانقسمت نصين .

– كملت .

عاد العربى به ملفوفاً فى أقمطة مبعثرة ، حاول أن يلمها ، ليضبطها على الجسد الضعيف ، نزل عوض عن الحمارة ، مد يده بالولد النائم إلى العربى الذى لف حبل الجاموسة حول كتفه ، وانشغل هو بكشف الأقمطة عن بطن الآخر، ليتاكد من وجود كتابة مشابهة ، أما الحاج فقد استغرقته حمرة الجانب الغربى من السماء ، وظل يردد بصوت خفيض «لا حول ولا قوة إلا بالله .. أنت أدرى بعبيدك .. وأنت المطلع» . ويخبط كفاً بكف «ماذا حدث للدنيا؟ وكيف اتصرف فى الاثنين معاً» .

– يا عوض .

– نعم يا حاج .

– بمجرد وصولنا للبلد تذهب بهما مباشرة إلى المركز .

– لم ادخل المركز فى حياتى يا حاج .. البركة فيك .

– لم أجد أخيب من أبنائى فى الدنيا .

– والله يا حاج فيه مشوار مهم .

– أهم من هذه المصيبة ؟

– الصباح رباح .

– فرصة والعربى معك .

– لا دخل لى يا حاج .

– من سيحملهما إذن ؟ ثم إنك شاهد على الواقعة .

– مصيبة وحطت على دماغى .

– بعد هذا اليوم تختفى عن طريقى .

– هناك رسم على بطن الولد .

– تركوا الكتابة ، ودخلوا فى الرسم .

– إنه وشم ، يا عم عوض .

– هذه خريطة يا جاهل .

– خريطة !! إنها صورة امرأة تقف على رأسها .

– جسدها الوادى ، وفخذاها الدلتا .

– وهذه الدكنة التى أراها فى المنتصف ؟

– إنها العاصمة .

– وهذه الأسهم ؟

– تشبه آلة رجل ، تسقط إلى ما بين فخديها من الشمال ومن الغرب .

- وهذه امرأة أخرى يا عم عوض .

- هذا هو البحر والخليج يا جحش . الآلة هنا تأتيه من الشمال ومن الشـ
من الجزيرة تحديداً .

- بلدنا يا عوض ؟

- الجزيرة العربية يا حاج .

- أنا لا أفهم شيئاً .

- خيالك واسع قوى يا عوض .

- هذا هو الرسم أمامى ، أتحب أن تراه ؟

- وكيف أرى فى هذه العتمة ؟

- منهم لله .

- من ؟

- من رسموا هذا على بطن عيل .

- قلت إنها رسائل .

- كانوا يرسلونها بالبريد .

- توكل على الله .. امشِ .

واعتدل العربى فى طريقه ، يجذب جاموسته بالحبل الملفوف على كتفه رافعاً الولد النائم على صدره ، وعوض امتطى حمارة المعداوى ، فسارت على كره منها، تنفخ بشدقيها فى تراب الطريق ، لم يرفع عوض عينيه عن الرسم ، ظل يقلب فى جسد الولد الذى ارتاح للاهتزازات الخفيفة ، جعل أصابعه فى فمه ، وبدأ يمصها حالماً بالثدى المفقود .

بعد فترة صمت طويلة ، افترق فيها الثلاثة كل فيما يشغله . بدت أنوار المصابيح من بعيد .

ها هى الجزيرة قد أضاءت أعمدة شوارعها ، ونوافذ البيوت ، والحلقات الملونة فوق المآذن المرتفعة ، وصار مبنى المستشفى واضحاً ، يشع بياضه بين ظلمة الأشجار الكثيفة المحيطة بأسواره .

ولم يجد أحدهم ما يحادث به الآخر ..

حتى ظهر سور المدرسة ، ومساكن عمال الدريسة ، وازدادت عتمة الطريق فكف عوض عن تأمل الرسم ، ومحاولة البحث عن مقاصده ، بل لقد نسى الأمر برمته ، لأنه حين شم أنفه رائحة مدينته بدأ يدبر حيلة للانسحاب من أبيه ، ليعود هو إلى موعده .

●

الرسوم الداخلية مهداة من الفنان : أحمد عز العرب



يوسف أبو رية

- من مواليد ٢ يناير ١٩٥٥ ههيا (الشرقية)
- درس الصحافة بكلية الإعلام جامعة القاهرة.
- عمل محرراً أدبياً فى العديد من المجلات والصحف والإعلام العلمى - بالمركز القومى للبحوث.
- ترجم بعض أعماله إلى الانجليزية والالمانية.
- صدرت له خمس مجموعات قصصية منها : (الضحى العالى) و (عكس الريح) و (وش الفجر) و (ترنيمة للدار) و (طلل النار) .
- صدرت له رواية (عطش الصبار) عام ١٩٨٩، وله تحت الطبع (الجزيرة البيضاء) .
- من أعماله للأطفال : (الأيام الأخيرة للجمل) رواية، و (خبز الصغار) و (أسد السيرك) و (طفولة الكلمات) .

هــذه الروايـــة

يستكمل يوسف أبو رية مشروعه الأدبى بدأب، لايتخلى عنه، سواء فى مجموعاته القصصية أو فى روايته الأولى .

نحن فى عالم ريفى متكامل، ثابت الأركان، رغم فنائه الواقعى . مراوحة بين القرية بصورتها التقليدية التى شكلت ملامحها الراسخة منذ الفراعنة، حتى بدايات السبعينيات من هذا القرن، وبين عالم المدن الصغيرة .

حيث يصارع الحنين مع العالم القديم المنهار، ويتوجس من الدخول فى العالم الجديد، الذى يحطم الأسوار بقلب قاس غشوم.

يشير بأصبع قلقة إلى النبع الأول، كما يحفظ للذاكرة دوامها، فلا يجرفها تيار يطمس ملامح الوطن .

إن الكتابة هنا تنبع من ذاكرة المكان، ومن شخوصه ومن قسماته التى شكلت التاريخ الخاص والعام .